القسم الثالث

وسطيَّة القرآن الكريم
في العبادة والأخلاق والتشريع

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول
وسطيّة القرآن في العبادة

تمهيد:

منذ أن خلق الله الإنسان أوجد فيه القلب والعقل، والعاطفة والفكر، ووهبه القدرة والإرادة، وأمره وزوجه أن يسكنا الجنة، ونهاهما عن أكل الشجرة، وكان أمره ـ سبحانه ـ ونهيه لمقتضى ألوهيته وربوبيته على من كانت مقتضيات بشريته وآدميته محلاً صالحاً للعبودية التامة، ومن أول نظرة نجد أن هذه الحقيقة التي تثبتها عقيدة الرسل الكرامﷺ ابتداء، تقول لنا: إن هذا بيان حاسم للتفريق بين ألوهية الباري ﷻ المقتضية للخلق والأمر، كما يشاء وفق علمه وحكمته، وبين عبودية الخلق المقتضية للسمع، والانقياد، وفق التركيب الرباني الموجود في الإنسان المتجلي في الإرادة والقدرة، ومن هنا لا بد من وجود قاعدة الجد والقصد، والوسط والاعتدال، والعدل والحق في بناء هذا الكون بالتميز بين حقيقة الألوهية بحقوقها ولوازمها، وبين حقيقة العبودية بحدودها وضوابطها، وما ينتج من هاتين الحقيقتين من سمات وصفات ونتائج وهذه هي الانطلاقة الأولى لقضية التوحيد بالنسبة للإنسانية على وجه المعمورة، بدأت من آدم عليه السلام أبي البشر مروراً بالأنبياء والمرسلينﷺ حتى قيام الساعة، انفتحت وظيفة الإنسان في هذه الحياة، وتحددت بها مهمته في هذا الوجود[1].

يقول ابن تيمية رحمه الله: (فالإنسان وكل مخلوق فقير إلى الله بالذات، وفقره من لوازم ذاته، يمتنع أن يكون إلا فقيراً إلى خالقه، وليس أحد غنياً بنفسه إلا الله وحده، فهو الصمد الغني عما سواه، وكل ما سواه فقير إليه فالعبد فقير إلى الله من جهة ربوبيته

---

(١) انظر حقيقة البدعة وأحكامها (١/ ١٥).

ومن جهة ألوهيته)[١].

ذلك (أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه، ومحبته، والإخلاص له... وحاجتهم إليه في عبادتهم إياه، وتألهم كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، وبذلك يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح، ولا نعيم، ولا لذة بدون ذلك بحال، بل من أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى)[٢].

وهذه الوظيفة، وهذه المهمة للإنسان في الحياة الدنيا، هي التي من أجلها أنزل الله الكتب وأرسل الرسل: فالرسل إنما دعوا إلى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته من أولهم إلى آخرهم فقال نوح: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف: ٥٩) وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء: ٢٥)[٣].

وبذلك يتضح للقارىء الكريم أن العبادة هي الوظيفة الأولى والأساسية للإنسان في هذه الحياة.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٤٢).
(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٣).
(٣) مدارج السالكين (١/ ١٠١).

المبحث الأول
معنى العبادة في اللغة والشرع

أولاً في اللغة: العبادة والعبدية والعبودية: الطاعة[١].

وفي لسان العرب: أصل العبودية: الخضوع والتذلل.

والتعبد: التنسك، والعبادة: الطاعة.

والتعبد: التذلل، والتعبيد: التذليل.

بعير معبد: مذلل، وطريق معبد: مسلوك مذلل[٢].

ويرى أبو الأعلى المودودي في معنى العبادة استناداً إلى الاستعمال اللغوي لمادة (ع.ب.د) أن أصل معنى العبادة هو الإذعان الكلي، والخضوع الكامل، والطاعة المطلقة[٣].

ثانياً: العبادة في الشرع: خضوع وحب[٤] والعبادة المأمور بها العبد تتضمن معنى الذل والخضوع لله ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له[٥].

قال ابن تيمية رحمه الله: (والإله هو المعبود الذي يستحق غاية الحب والعبودية والإجلال والإكرام والخوف والرجاء...)[٦].

وينص ابن القيم رحمه الله: على أن (العبادة تجمع أصلين غاية الحب بغاية الذل

(١) القاموس المحيط، كتاب (الدال)، فصل (العين) (٣٧٨).
(٢) لسان العرب، كتاب الدال، فصل العين المهملة (٣/ ٢٧١).
(٣) المصطلحات الأربعة في القرآن، للمودودي (٩٧).
(٤) العبادة في الإسلام، للشيخ القرضاوي حفظه الله (٣١).
(٥) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٢٠٧).
(٦) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٥).

والخضوع)[١] ودعائم هذه العبادة التي تنتظم أعمال الإنسان كلها القلبية، والعلمية الفردية والجماعية: المحبة والخوف والرجاء. وقد جعل ابن القيم هذه الثلاث في قلب المؤمن: (بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر[٢]. وبهذا يتضح مفهوم العبادة في الشرع.

المبحث الثاني
التفريط والإفراط في العبادة

وقبل أن ألج في بيان منهج القرآن في العبادة، وبيان ملامح الوسطيَّة في ذلك، أرى من المناسب ذكر المناهج السائدة فيما يتعلق بالعبادة تفريطاً وإفراطاً، فأقول وبالله التوفيق.

المنهج الأول: ويمثله اليهود في تفريطهم وجفائهم، فلو تأملنا في التوراة ـ بعد تحريفها ـ لوجدنا تقديس المادة غلب على بنودها، فلا تقرأ في أسفار التوراة ذكراً للآخرة، حتى ما ورد فيها من وعد ووعيد فإنما هو متعلق بالدنيا فقط، فلا يعمل الشخص إلا لتحقيق كسب عاجل، أو خوفاً من عقوبة عاجلة، بل بلغوا وطبقوا ماديتهم حتى في معرفة الله، فقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ (النساء: ١٥٣) وقالوا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (البقرة: ٥٥).

ووفقاً لهذا التصور المادي الدنيوي أغرق هؤلاء في تقديس المحسوسات، واتخذوها للرقي، وأصبحت القيم المادية محور الحياة، وتحول الإنسان في نظر هؤلاء إلى آلة تتحرك، ومعدة تهضم، وكائن يلهو وقد وصفهم القرآن الكريم، وبين مدى تعلقهم بالحياة الدنيا وحرصهم عليها فقال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ (البقرة: ٩٦) أي حياة، حتى لو كانت حياة البهائم ونحوها وذلك لأنهم يخشون الموت ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ (البقرة: ٩٥) لأنهم ربطوا غايتهم بالدنيا، فعلمهم للدنيا وعبادتهم لمآرب دنيوية! فإذا انتهت الدنيا فقد فاته كل شيء فهم بهذا أغرقوا في الشهوات،

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٤).
(٢) المصدر السابق (١/ ٥١٧).

وعبدوا أنفسهم للماديات، فهم كمشركي قريش الذين قالوا: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (الجاثية: ٢٤) وهذا المنهج يمثل التفريط في أسوأ صوره وحالاته، ولذلك أمرنا الله أن نستعيذ منه في كل صلاة، ونسأله أن يجنبنا إياه: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧).

أما المنهج الثاني: وهو المنهج القائم على الروحانيات، وذلك بإعلائها وتمجيدها، والإغراق في مفهوم العبادة والرهبنة، ويمثل هذا المنهج النصارى، وهو منهج الإفراط والغلو وابتدع النصارى رهبانية قاسية على النفس، تحرم الزواج، وتكبت الغرائز، وتمنع كل أنواع الزينة وطيبات الرزق، وترى ذلك رجساً من عمل الشيطان وبالغوا في العبادة، وأخرجوها عن كيفيتها، وعن المراد منها، وأصبحت رهبانية غالية مشوهة، مغذية للأجساد، ابتدعوها من أنفسهم، بلا حجة ولا برهان، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (الحديد: ٢٧).

ولذلك كانت حالهم ومآلهم: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ (الغاشية: ١ ـ ٤) وهذا المنهج يمثل الإفراط والغلو، وهو الوجه الثاني من وجوه الانحراف عن الصراط المستقيم، ولذلك أمرنا بأن نسأل الله أن يجنبنا إياه: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧).

المبحث الثالث

الغلو في العصر النبوي

لقد عاش رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام﵃ عاملين بمنهج الوحي على أفضل وجه وأعدله، وقدموا لنا صورة مثالية فريدة في تنفيذ منهج الله بتوازنه واعتداله ووسطيته، وشموله وواقعيته وكماله.

وبذلك نالوا شرف خيرية هذه الأمة قال رسول الله ﷺ: «**خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[(١)]. إلا أنه قد وقعت بعض المواقف الفردية المعدودة من بعض الصحابة تشير إلى الاتجاه إلى سبيل الغلو، والتشدد في الدين عن حرص

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضل أصحاب النبي ﷺ (٤/ ٢٢ رقم ٢٦٠٠).

صادق للازدياد من الخير، ولكن الرسول الكريم والمربي العظيم ﷺ كان له بالمرصاد، فردهم عن هذا السبيل، وقوَّم هذا العوج، وصحح نظريتهم، وأرشدهم إلى سبيل الاعتدال والخير القويم، فاستجابوا وأطاعوا، كل ذلك كان بأسلوب حكيم[١].

النموذج الأول: الثلاثة الرهط:

عن أنس ﷺ قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم: أما أنا فأنا أقوم الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً فجاء رسول الله ﷺ فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟... أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[٢].

فهذا موقف من مواقف الغلو يجلي لنا سبب هذه النزعة: وهي الرغبة الصادقة في التزود من الخير دفعتهم للسؤال عن أسلوب النبي ﷺ في عبادته، فلما علموا، رأوا أن ذلك قليل فقالوا ما قالوا.

ولكن الرسول ﷺ لم يقر هذا الاتجاه فبادر بعلاجه، وصحح نظرتهم لتحصيل خشية الله وتقواه؛ فبين أنها ليست بالتضلع من أعمال والتفريط في أخرى، ولكنها تحصل بالموازنة بين جميع مطالب الله، وهذا هو عين الوسطيَّة والحكمة والاستقامة والاعتدال والعدل[٣].

نموذج آخر: عبد الله بن عمرو بن العاص:

قال عبد الله بن عمرو: قال لي النبي ﷺ: «**ألم أُخبرْ أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟**» قلت: إني أفعل ذلك، قال: «**فإنك إذا فعلت ذلك هجمت عَيْنُك، ونَفِهَتْ نفسك، وإن لنفسك حقّاً ولأهلك حقّاً فصم وأفطر، وقم ونم**»[٤].

---

(١) انظر: ظاهرة الغلو في الدين، محمد عبد الحكيم، (٨١).
(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٦/ ١٤٢، رقم ٥٠٦٣).
(٣) انظر: ظاهرة الغلو في الدين (٨٥).
(٤) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب ما يكره من ترك قيام الليل (٢ رقم ١١٥٣).

هذا موقف لشاب صالح تقي، أشرب قلبه حب الله وذاق حلاوة الوقوف بين يديه، فأسهر ليله، وأظمأ نهاره وزهد في الدنيا ولذاتها وبالغ في ذلك، وكان السبب في ذلك إرادة الخير، ولكن رسول الله ﷺ كانت عينه ساهرة اهتماماً بشؤون أمته فلم يقره على هذا المسلك برمته؛ بل هذب هذه النزعة حتى تؤتي ثمارها، كل ذلك بأسلوب حكيم، فبين له ﷺ أن الفطرة الإنسانية والطبيعة البشرية لا تتحمل ذلك دوماً، نعم قد تتحمله فترة ولكن تحدث بعد ذلك انتكاسه، ولنا في تاريخ الرهبان عبرة وفي هذه القصة أيضاً، وبيَّن ﷺ أن المبالغة في العبادة يصحبها غالباً تقصير في حقوق أخرى كثيرة[١].

نموذج آخر: أبو إسرائيل[٢]:

عن ابن عباس قال: بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبي ﷺ: «**مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه**»[٣].

فهذا يدل على سماحة ويسر الشريعة.

نموذج آخر: أبو الدرداء:

آخى رسول الله ﷺ بين سلمان[٤] وبين أبي الدرداء «فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة[٥] فقال: ما شأنك متبذلة؟ قالت: إن أخاك أبا الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. قال: فلما جاء أبو الدرداء قرب إليه طعاماً فقال: كل فإني صائم قال: ما

---

(١) ظاهرة الغلو في الدين (٨٥).

(٢) صحابي مختلف في اسمه فقيل: يسير، وقيل: قشير، وقيل: قيصر، ومختلف في نسبه، فقيل: أنصاري، وقيل: قرشي، وقيل: عامر، وليس في الصحابة من يشاركه في اسمه أو كنيته، وليس له ذكر إلا في هذا الحديث. انظر: الإصابة (٤/ ٦٧)، تجريد أسماء الصحابة (٢/ ١٤٧).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الإيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك (٧/ ٢٩٧)، رقم الحديث: (٦٧٠٤).

(٤) هو الصحابي المعمر أبو عبد الله سلمان الفارسي، ويقال له: سلمان ابن الإسلام، وسلمان الخير، سمع النبي ﷺ فأسلم، وكان رفيقاً، أول مشاهدة الخندق، ثم بقية المشاهد، وفتوح العراق، وولي المدائن، اتفق على أنه عاش مائتين وخمسين سنة. توفي (٣٦هـ) انظر: الإصابة (٢/ ٦٠). وسير أعلام النبلاء (١/ ٥٥).

(٥) التبذل: ترك التزين والتهيؤ بالهيئة الجميلة. النهاية (١/ ١١١)، وكان موقف سلمان من أم الدرداء قبل أن ينزل الأمر بالحجاب.

أنا بآكل حتى تآكل. قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم. فقال له: سلمان: نم فنام، ثم ذهب يقوم فقال له: نم فنام، فلما كان عند الصبح قال له سلمان: قم الآن فقاما فصليا، فقال: إن لنفسك عليك حقاً، ولربك عليك حقاً، ولضيفك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه. فأتيا النبي ﷺ فذكر ذلك، فقال له: «**صدق سلمان**»(١).

فهذه ثمرة من ثمرات الأخوة الصادقة التي غرسها الرسول ﷺ في نفوس أصحابه، وهذه الأخوة عليها معول كبير في تقويم مسلك الغلو، إذ هي تنشىء التفاهم والثقة وهما عنصران ضروريان في العلاج، وكان علاج سلمان فيه حزم وحكمة: فأبى أن يأكل إلا إذا أكل معه أبو الدرداء، ولما أرخى الليل سدوله، سلك طريقة عملية متدرجة في علاج الجموح وضبطه، فأمره بالنوم في أوله، ثم قام معه في آخره وصليا جميعاً. وهكذا نجح العلاج عند توفر: الأخوة، والحزم، والحكمة، ولين الطرف الآخر(٢).

نموذج آخر:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي امرأة فقال: «**من هذه؟**» فقلت: فلانة لا تنام من الليل، تذكر من صلاتها قال: (**عليكم من العمل ما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا**) وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه»(٣) وهذا توجيه نبوي كريم نحو الاعتدال والتوسط.

نموذج آخر:

عن أنس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد وحبل ممدود بين ساريتين. فقال: «**ما هذا؟** قالوا: لزينب(٤) تصلي، فإذا كسلت أو فترت أمسكت به فقال: «**حلوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا كسل أو فتر فليقعد**»(٥).

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب صنع الطعام والتكلف للضيف (٧/ ١٣٦) رقم (٦١٣٧).
(٢) انظر: ظاهرة الغلو في الدين (٨٩).
(٣) صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة (٢/ ١٦ رقم ١١٥١).
(٤) هي زينب بنت النبي ﷺ.
(٥) صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العباد (٢/ ١٦ رقم ١١٥٠).

obeikandi.com

فهذا الحديث يدل على أن النساء لم يكنَّ أقل حرصاً من الرجال على التزود من الخير، والتنافس في أعمال البر، وقد تجلى ذلك في هذه النزعة الجامحة نحو العبادة، ولكن الرسول ﷺ لم يقر هذا الجموح الضار، فعمد إلى الزجر عنه، وأمر بالوسط النافع ولنستمع الآن إلى تعليق الإمام النووي النافع حول هذين الحديثين فيقول: (فيه دليل على الحث على الاقتصاد في العبادة واجتناب التعمق، وليس الحديث مختصّاً بالصلاة؛ بل هو عام في جميع البر، وفي الحديث كمال شفقته ﷺ ورأفته بأمته؛ لأنه أرشدهم إلى ما يصلحهم، وهو ما يمكنهم الدوام عليه بلا مشقة ولا ضرر فتكون النفس أنشط، والقلب منشرحاً فتتم العبادة، بخلاف من تعاطى من العبادة ما يشق عليه فإنه بصدد أن يتركه أو بعضه أو يفعله بكلفة وبغير انشراح القلب فيفوته خير عظيم.

وقد ذم الله ﷻ من اعتاد عبادة ثم فرط فقال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (الحديد: ٢٧) وقد ندم عبد الله بن عمرو بن العاص على تركه قبول رخصة رسول الله ﷺ في تخفيف العبادة ومجانية التشديد)[١].

نموذج آخر: الزهد الغالي:

وقد ظهرت عند بعض الصحابة نزعة شديدة إلى العبادة والغلو فيها والانقطاع لها وحرموا على أنفسهم طيبات أحلت لهم فأنزل الله آيات تنكر عليهم هذا السبيل وتردهم إلى طريق الوسطيَّة والاعتدال، ذكر الإما الطبري (إن مجموعة من الصحابة منهم عثمان بن مظعون[٢] وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود: تبتلوا فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح، وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهموا بالخصاء، وأجمعوا لقيام الليل، وصيام النهار، فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (المائدة: ٨٧).

---

(١) مسلم شرح النووي، كتاب صلاة المسافر، باب فضيلة العمل الدائم (٦/ ٧١).

(٢) هو عثمان بن مظعون بن حبيب وهب الحمي أبو السائب من سادة ومن أولياء الله المتقين الذين فازوا بوفاتهم في حياة نبيهم فصلى عليهم وكان أول من دفن بالبقيع. انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ١٥٣).

يقول: لا تستنوا بغير سنة المسلمين، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار، وما هموا به من الخصاء، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: «**إن لأنفسكم حقاً، وإن لأعينكم حقاً، صوموا وأفطروا، وصلوا وناموا فليس منا من ترك سنتنا**»، فقالوا: اللهم أسلمنا واتبعنا ما أنزلت[(١)].

وقد ذكر هذه القصة بعض التابعين مرسلة ولها شاهد في صحيح البخاري من حديث سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه وقال: رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا)[(٢)].

إن أعمال النبي ﷺ وأقواله، وتوجيهاته، ترجمة حية للقرآن الكريم، ونلاحظ: من هدي النبي ﷺ في علاجه لمسلك الغلو بدأ علاجه ﷺ في بداية أمر الغلو قبل أن يستفحل خطره، حتى قضي عليه، كل ذلك بحكمة رائعة مبنية على معالجة الأمر بروح الشفقة والرحمة والأخوة، والتدريج في العلاج، وتقديم الحلول النافعة، وبيان محاذير وعيوب الغلو من التقصير في حقوق أخرى وإن الفطرة البشرية لا تطيق الاستمرار على هذا الغلو، وستر الغلاة وعدم التشنيع بهم، مع الحوار الهادىء معهم، وتصحيح المفاهيم، وبيان السبيل القويم، فالخشية والتقوى تحصل بالتوازن، لا بالمبالغة في أمر وإهمال أمور[(٣)].

إن الأحاديث والتوجيهات النبوية التي ذكرتها صريحة في رسم منهج الوسطيَّة في العبادة، والحث على الاقتصاد والاعتدال فيها والنهي عن التعمق والتشدد، والاقتصاد على ما يطاق من العبادة، والابتعاد عن تكلف ما لا يطاق.

المبحث الرابع
تقرير القرآن لمنهج الوسطيَّة في العبادة

نجد أن القرآن الكريم قرر منهج الوسطيَّة في العبادة في آيات كثيرة، تنظم فيما يلي:

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ١١).
(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب ما يكره من التبتل (٦/ ١٤٥ رقم ٥٠٧٣).
(٣) ظاهر الغلو في الدين (٩٣).

أولاً: الآيات التي تبين انحراف أولئك الذين صرفوا العبادة عن وجهها الصحيح، وذلك مثل:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤﴾ (الزمر: ٦٤).

وقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝٤٣﴾ (النمل: ٤٣)
وقوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ﴾ (المائدة: ٧٦).

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ﴾ (الزمر: ٣).

ومثل ذلك قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾ (الحج: ١١).

فهذه الآيات وأمثالها ترسم منهج الوسطيَّة في العبادة ببيان انحراف طريق هؤلاء الذين قلبوا العبادة عن وجهها الصحيح.

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ﴾ قال مجاهد وقتادة وغيرهما: (على حرف) على شك وقال غيرهم: على طرف، ومنه حرف الحبل، أي: طرفه، أي: دخل في الدين على طرف، فإن وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر)[1].

وانظر: إلى قول القرطبي، حيث إن كلامه نص في محل الشاهد قال: (على حرف) على شك، قاله مجاهد وغيره، وحقيقته أنه على ضعف في عبادته، كضعف القائم على حرف مضطرب فيه، وحرف كل شيء: طرفه وشفيره وحده، ومنه حرف الجبل، وهو أعلاه المحدد وقيل: (على حرف) أي على وجه واحد، وهو أن يعبده على السراء دون الضراء، ولو عبدوا الله على الشكر في السراء والصبر على الضراء لما عبدوا الله على حرف، وقيل: (على حرف) على شرط[2].

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ (الزمر: ٣) أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٢٠٩).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٢/١٧).

جاهليتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، جاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بردها والنهي عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه، ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه(١).

ثانياً: الآيات التي جاءت تأمر بعبادة الله وحده، وتصف عبادته بالاستقامة، وبأن عبادته هي الكلمة السواء، وغير ذلك مما يدل على أن عبادته هي الطريق الوسط السالم من الانحراف والضلال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ (آل عمران: ٦٤).

وقال في أكثر من موضع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (آل عمران: ٥١). وقال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ (الحجر: ٩٩).

والآيات التي جاءت تأمر بعبادة الله وحده كثيرة جداً، فما من نبي إلا قال لقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ (الأعراف: ٥٩).

قال الطبري في قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ (آل عمران: ٦٤) يعني بذلك ـ جل ثناؤه ـ قل يا محمد لأهل الكتاب، وهم أهل التوراة والإنجيل تعالوا هلموا إلى كلمة سواء يعني إلى كلمة عدل بيننا وبينكم والكلمة العدل: وهي أن نوحد الله فلا نعبد غيره، ونبرأ من كل معبود سواه، ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ (آل عمران: ٦٤)(٢).

وقال ابن كثير في الآية نفسها: ﴿سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي عدل ونصف نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرها بقوله: (آل عمران: ٦٤) لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيء، بل نفرد العبادة لله ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦).

وقال رشيد رضا: قال الأستاذ الإمام في قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لما نكلوا دعاهم إلى أمر آخر، هو أصل الدين وروحه الذي اتفقت عليه

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤).
(٢) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٣٠١).

دعوة الأنبياء، وهو سواء بين الفريقين، أي عدل ووسط لا يرجح فيه طرف آخر، وقد فسره بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[(١)] الآية.

وبهذا يتضح لنا أن هذه الآية نص في الوسطيَّة في العبادة، وهي عبادة لله وحده.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٥١﴾ (آل عمران: ٥١) فقد قال الطبري في معناها ذلك هو الطريق القويم، والهدى المتين الذي لا اعوجاج فيه[(٢)].

وقال في آية مريم: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٣٦﴾ (مريم: ٣٦) يقول: هذا الذي أوصيتكم به، وأخبرتكم أن الله أمرني به هو الطريق المستقيم، الذي من سلكه نجا، ومن ركبه اهتدى؛ لأنه دين الله الذي أمر به أنبياءه[(٣)].

وقال القاسمي: في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (مريم: ٣٦): (أي قويم، من تبعه رشد وهدى، ومن خالفه ضل وغوى)[(٤)].

وقد سبق أن أوضحت أن الوسطيَّة تعني الاستقامة، وأن قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ (الفاتحة: ٦) من أقوى الأدلة على منهج الوسطيَّة، كما يقرره القرآن الكريم.

ثالثاً: الآيات التي جاءت في بعض أنواع العبادة كالصلاة والدعاء وغيرهما، حيث نجد فيها أمراً بالتزام منهج الوسط، ونهياً عن الإضاعة أو الرهبنة، وهو ما يمثل الإفراط والتفريط.

وسأذكر بعض الآيات التي وردت في ذلك، مقتصراً على ما يبين المراد، مع بيان دلالة الآية على الوسطيَّة:

١ ـ ذم الله الإفراط في العبادة والغلو فيها، حيث قال في حق بني إسرائيل من النصارى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا

---

(١) انظر: تفسير المنار (٣/ ٣٢٥).
(٢) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٢٨٣).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٨٥).
(٤) انظر: تفسير القاسمي (١١/ ٤١٣٧).

فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ (الحديد: ٢٧).

قال القاسمي: (الرهبانية هي المبالغة في العبادة، والرياضة والانقطاع عن الناس، وإيثار العزلة والتبتل)[١].

وقال ابن كثير: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي: ابتدعتها أمة النصارى ما كتبناها عليهم. أي: ما شرعناها لهم، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم، ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ﴾، أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين:

أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله.

الثاني: في عدم قيامهم بما التزموه، مما زعموا أنه قربة تقربهم إلى الله ﷻ[٢].

وهذه الرهبانية التي ابتدعها النصارى لم يشرعها الله، وهي غلو في العبادة، ولذلك كانت النتيجة عدم قدرتهم على المحافظة عليها لمشقتها وصعوبتها.

وقول الله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ دليل على أن الله لا يشرع ولا يكلف بما فيه غلو ومشقة، كما سبق بيانه ولقد اعترف عدد من متأخري النصارى بخطأ هذا الغلو والرهبنة التي ابتدعها أسلافهم، وأنها ليست من دين الله، ونحن لسنا بحاجة إلى ذلك؛ لأن الله قد بين هذا الأمر في كتابه، ولكن هذا الاعتراف له دلالاته التي لا تخفى.

وقد ذكر القاسمي بعض هذه الاعترافات تفصيلاً، أذكر موجزاً منها[٣]:

قال صاحب ريحانة النفوس ـ وهو نصراني: (إن الرهبنة قد نشأت من التوهم بأن الانفراد عن معاشرة الناس، واستعمال التقشفات والتأملات الدينية، وهي ذات شأن عظيم، ولكن لا يوجد سند لهذا الوهم في الكتب المقدسة؛ لأن مثال المسيح، ومثال رسله يضادانه باستقامة، ثم قال، ونحن نقول بكل جرأة: إنه لا يوجد في جميع الكتب المقدسة مثال، ونحن نقول للرهبنة، ولا يوجد أمر من أوامره يلزم بها، بل العكس)[٤].

---

(١) انظر: تفسير القاسمي (١٦/ ٨).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٥).
(٣) انظر: تفسير القاسمي (١٦/ ٥٦٩٨).
(٤) انظر: تفسير القاسمي (١٦/ ٥٧٠٠).

وذكر القاسمي نقلاً عن النصارى من كتاب البراهين الإنجيلية ضد الأباطيل البابوية: إن ذم الزيجة خطأ، لأنها عمل الأفضل، لأن الرسول أخبر بأن الزواج خير من التوقد بنار الشهوة. ثم قال: ومن المعلوم أن الطبيعة البشرية تغضب الإنسان على استيفاء حقها، ومن العدل أن نستوفيها، إلى أن قال: ولذلك نرى كثيراً من القساوسة والشمامسة، لا بل من البابوات المدعين بالعصمة، قد تكردسوا في هوة الزنى، لعدم تحصنهم بالزواج الشرعي.

ثم قال: فالطريقة الرهبانية هي اختراع شيطاني قبيح، لم يكن له رسم في الكتب المقدسة، ولا في أجيال الكنيسة الأولى وختم كلامه الطويل ـ بقوله: ولا تتسع الصحف لشرح جميع الأضرار لتي وقعت على العالم بسبب الرهبنات. ثم عقب القاسمي على ذلك: وهو حجة عليهم منهم[1].

هذه نتيجة الرهبنة والإفراط والغلو الذي ذمه الله، فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ (النساء: ١٧١) وقال: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ (الحديد: ٢٧).

وكما ذم الله الغلو والرهبنة فقد ذم التفريط والتضييع والإهمال، فقال سبحانه: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾ (مريم: ٥٩).

وقال ابن كثير مبيناً دلالة هذه الآية على الخروج عن منهج الوسطيّة.

لما ذكر الله تعالى حزب السعداء، وهم الأنبياء ﷺ، ومن أتبعهم من القائمين بحدود الله، وأوامره، المؤدين فرائض الله، التاركين لزواجره، وذكر أنه ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ أي قرون أخرى: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غيّاً، أي خسارة يوم القيامة[2].

وقال الشنقيطي في تفسير الآية: (فخلف من بعد أولئك النبيين خلف، أي: أولاد

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٧).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٧).

obeikandl.com

سوء. ثم قال: إن هذه الخلف السيء الذي خلف من بعد أولئك النبيين الكرام كان من صفاتهم القبيحة أنهم أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات ثم قال: فإذا عرفت الكلام في الآية الكريمة، وأن الله توعد فيها من أضاع الصلاة واتبع الشهوات بالغي، الذي هو الشر العظيم، والعذاب الأليم، فاعلم أنه أشار إلى هذا المعنى في مواضع أخرى، كقوله في ذم الذين يضيعون الصلاة ولا يحافظون عليها وتهديدهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝﴾ (الماعون: ٤ ـ ٦) وأشار في مواضع كثيرة إلى ذم الذين يتبعون الشهوات، وتهديدهم، وكقوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝﴾ (الحجر: ٣).

ويفهم من مفهوم مخالفة الآية الكريمة أن الخلف الطيبين لا يضيعون الصلاة، ولا يتبعون الشهوات، وقد أشار إلى هذا في مواضع كثيرة من كتابه، كما في سورة المؤمنين في وصف المؤمنين وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝﴾ (النازعات: ٤٠ ـ ٤١)[1].

٢ ـ وبعد أن ذكر الآيات التي تدل على النهي عن الغلو والإفراط أو التفريط والتضييع ذكر بعض الآيات التي تأمر بالتزام الوسط بين الإفراط والتفريط، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ١١٠). نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوارٍ بمكة: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ كان ﷺ إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله، ومن جاء به، قال: فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[2].

قال القرطبي: روى مسلم عن عائشة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قالت: أنزل هذا في الدعاء[3].

والشاهد أن هذه الآية تأمر بالتوسط بين أمرين منهي عنهما وهما الجهر الشديد،

---

(١) انظر: أضواء البيان، للشيخ الشنقيطي (٣٠٧/٤).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦٨/٣).
(٣) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد (٣٢٦/١ رقم ٤٤٧).

والمخافتة والإسرار ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥﴾ (الأعراف: ٢٠٥).

قال القرطبي: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ﴾ أي دون الرفع في القول، أي: أسمع نفسك كما قال: ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ (الإسراء: ١١٠) أي: بين الجهر والمخافتة[١].

وقال ابن كثير: ﴿تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾ أي: اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة، وبالقول لا جهراً، ولهذا قال: ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر، لا يكون نداء ولا جهراً بليغاً[٢].

وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ (التغابن: ١٦) قال ابن كثير: أي جهدكم وطاقتكم وهذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٠٢﴾ (آل عمران: ١٠٢)؛ لأنه لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم، وتقرحت جباههم فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً للمسلمين: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ (التغابن: ١٦) فنسخت الآية المذكورة. ودلالة الوسطيّة على هذا القول واضحة جلية.

ونقف أمام قوله تعالى في سورة المزمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤﴾ (المزمل: ١ ـ ٤) ثم قال في آخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ (المزمل: ٢٠).

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ أي: من غير تحديد بوقت، أي: ولكن قوموا من الليل ما تيسر، وعبر عن الصلاة بالقراءة، كما قال في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ﴾ (الإسراء: ١١٠) أي بقراءتك[٣].

وقال القرطبي: قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ قيل: (أي: فتاب عليكم من فرض القيام إذ

(١) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٣٥٥).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨١).
(٣) انظر: المرجع السابق (٤/ ٤٣٨).

obeikandi.com

عجزتم، وأصل التوبة الرجوع، فالمعنى: رجع لكم من تثقيل إلى تخفيف، ومن عسر إلى يسر)[١].

وفي الآيات السابقة دلالة واضحة على منهج الوسطيَّة في قيام الليل.

المبحث الخامس
حقيقة العبادة في القرآن الكريم والسنة النبوية

ساد بين الناس مفاهيم خاطئة للعبادة، وصرفت عقولهم وقوبهم وأعمالهم عن هذه الوظيفة التشريفية التي خلق الله الإنسان من أجلها، وسخر له كل شيء في نفسه وفي الكون من حوله؛ ليقوم بها وفق أمر خالقه، وعند تأمل القرآن الكريم والسنة النبوية وما تحويه من أخبار وأوامر ونواهي ووعد ووعيد، نجد كلها تدور حول تقرير ألوهية الله ﷻ وعبودية الإنسان له.

فإذا كان خلق الإنسان وتسخير الكون له، وإيجاد العقل والقلب والإرادة فيه، وإرسال الرسل وإنزال الكتب وخلق الجنة والنار، وقبل ذلك وبعده ما تقتضيه صفات الباري - جلَّ وعلا - من كونه في ذاته وأفعاله ﷻ حكيماً عليماً، خلق كل شيء فقدره تقديراً، ولم يخلق شيئاً عبثاً ولم يوجد شيئاً لغير حكمة وإذا كان القرآن المجيد، وما فيه من أخبار وأوامر ووعد ووعيد جاء لأجل هذه المهمة العظيمة، ألا وهي تعبيد الخلق كلهم لله سبحانه فكيف يصح حينئذ أن يتصور أن العبادة هي النية النقية وحسب، أو أنها الشعائر التعبدية فقط، أو أنها لبعض نشاطات الإنسان دون بعض، أو لبعض أفعاله وأحواله دون بعض.

بل إن دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان، وجعلها غايته في الحياة، ومهمته في الأرض، دائرة رحبة واسعة: إنها تشمل شؤون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعاً، وتستغرق كافة مناشطه وأعماله[٢].

وبهذا المعنى الشامل، فهم السلف الصالح عبادة الإنسان فرداً كان أو جماعة،

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٩/٥٣).
(٢) انظر: العبادة في الإسلام (٥٣).

وقد لخص هذا المعنى الشامل للعبادة وحدد ماهيتها شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ حين قال: (العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله...)[1].

وبهذا التعريف الجامع لا يمكن أن يخرج أي شيء من نشاطات الإنسان وأعماله، سواء كان ذلك في العبادات المحضة، أو في المعاملات المشروعة، أو في العادات التي طبع الإنسان على فعلها.

أما في العبادات والمعاملات المشروعة فإنها مما يحبه الله ويرضاه، وهذا أمره الشرعي الدائر بين الأحكام الخمسة التي اصطلح عليها الفقهاء وهي: (الواجب والمحرم، والمستحب، والمكروه، والمباح) أما في العادات فالذي لم يوجد منها بأوامر الشرع، ولم يقيد بأحكامه على وجه الخصوص، فإنه لا يخرج عن كونه داخلاً تحت عمومات الشرع باعتبار عبودية الإنسان في كل أحواله لله سبحانه، وباعتبار أن: (العادات لها تأثير عظيم فيما يحبه الله، أو فيما يكرهه، فلهذا أيضاً جاءت الشريعة بلزوم عادات السابقين الأولين في أقوالهم وأعمالهم وكراهة الخروج عنها إلى غيرها من غير حاجة)[2].

وإن كان ينبغي لنا هنا الإشارة إلى أن الأصل في العبادات المحضة المنع حتى يرد ما يدل على مشروعيتها، وأن أصل العادات العفو حتى يرد ما يدل على منعها، وذلك مبني على (أن تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: عبادات يصلح بها دينه، وعادات يحتاجون إليها في دنياهم. فباستقراء أصول الشريعة نعلم أن العبادات

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥٠).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣٩٩).

التي أوجبها الله، أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلا بالشرع.

وأما العادات فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيه عدم الحظر، فلا يحظر منه إلا ما حظره الله ﷺ، وذلك لأن الأمر والنهي هما شرع الله، والعبادة لا بد أن يكون مأموراً بها، فما لم يثبت أنه مأمور به، كيف يحكم عليه بأنه عبادة؟!

وما لم يثبت في العبادات أنه منهي عنه، كيف يحكم عليه أنه محظور؟ والعادات الأصل فيها العفو، فلا يحظر منها إلا ما حرم)[١].

وهذا التقسيم في الحظر والإباحة لا يخرج شيئاً من أفعال الإنسان العادية من دائرة العبادة لله، ولكن ذلك يختلف من درجته ما بين عبادة محضة وعادة مشوبة بالعبادة، وعادة تتحول بالنية والقصد إلى عبادة، لأن المباحات يؤجر عليها بالنية والقصد الحسن إذا صارت وسائل للمقاصد الواجبة، أو المندوبة أو تكميلاً لشيء منهما[٢].

وقال النووي في شرحه لحديث: «**وفي بضع أحدكم صدقة**»[٣]: (وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنية الصادقة)[٤].

ومن ذلك يتضح: (أن الدين كله داخل في العبادة، والدين منهج الله جاء ليسع الحياة كلها، وينظم جميع أمورها من أدب الأكل والشرب وقضاء الحاجة، إلى بناء الدولة، وسياسة المال، وشؤون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدولية في السلم والحرب.

إن الشعائر التعبدية من صلاة، وصوم، وزكاة لها أهميتها ومكانتها؛ ولكنها ليست العبادة كلها؛ بل هي جزء من العبادة التي يريدها الله تعالى.

إن مقتضى العبادة المطالب بها الإنسان، أن يجعل المسلم أقواله وأفعاله

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٩/١١٦ ـ ١١٧).
(٢) انظر: حقيقة البدعة وأحكامها للغامدي (١/١٩).
(٣) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١/٦٩٧).
(٤) شرح النووي مع مسلم، كتاب الزكاة، باب كل نوع من المعروف صدقة (٧/٩٢).

وتصرفاته وسلوكه وعلاقاته مع الناس وفق المناهج والأوضاع التي جاءت بها الشريعة الإسلامية، يفعل ذلك طاعة لله واستسلاماً لأمره...)[١].

والدليل على المفهوم الشامل للعبادة من الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضوان الله عليهم: فأما من القرآن الكريم فقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ (الذاريات: ٥٦) ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣١) ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ (الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣) ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ (البينة: ٥).

ومن السنة أحاديث كثيرة بعضها في عموم العادات بدون تخصيص، وبعضها الآخر في أفراد السلوك العادي، وفي هذا الأخير دليل وتنبيه على المعنى العام المقصود إثباته هنا فمن ذلك:

قوله ﷺ: **«إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة، وهو يحتسبها كانت له صدقة»**[٢].

وقوله ﷺ: **«كل ما صنعت إلى أهلك فهو صدقة عليهم»**[٣]. وقوله ﷺ: **«دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»**[٤].

وقال ﷺ: **«كل سُلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة، وتُعين الرجل على دابة فيحمل عليها، أو ترفع له متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة، ودَلُّ الطريق صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»**[٥].

وقول الرسول ﷺ: **«دخلت امرأة النار في هرة، ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها**

---

(١) مقاصد المكلفين للدكتور عمر الأشقر (٤٦ ـ ٤٧).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية (١/ ٢٤ رقم ٥٥).
(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني رحمه الله (٣/ ٢٢).
(٤) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب النفقة على العيال والمملوك (١/ ١٩١).
(٥) أخرجه البخاري، كتاب الصلح، باب فضل الإصلاح بين الناس (٣/ ٢٢٧) رقم (٢٧٠٧).

تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت»[١].

وأما الاستدلال على عموم العبادة وشمولها لحياة الإنسان بفعل السلف وفهمهم ففيما رواه البخاري في صحيحه عن أبي بردة[٢] في قصة بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، وفي آخره قال أبو موسى لمعاذ: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي)[٣].

وفي كلام معاذ ﷺ، دليل أن المباحات يؤجر عليها بالقصد والنيَّة.

المبحث السادس
شروط قبول العبادة في القرآن الكريم

ومن وسطيَّة القرآن الكريم بيانه لشروط قبول الأعمال وجاءت الآيات والأحاديث النبوية التي رسمت هذه الشروط وأصلتها، وجعلتها في شرطين اثنين هما: أولاً: الإخلاص، وثانياً: المتابعة. وبينت الآيات والأحاديث ضرورة توفر الشرطين في قبول أي عمل:

الشرط الأول: الإخلاص:

وهذا الشرط متعلق بالإرادة، والقصد، والنية والمقصود به: (إفراد الحق ﷻ بالقصد والطاعة)[٤].

والنية تقع في كلام العلماء بمعنيين كما قرر ذلك ابن رجب فقال: (أحدها: تميز العبادات بعضها عن بعض، كتمييز صلاة الظهر عن العصر مثلاً... إلى أن قال:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق، الحديث رقم (٣٣١٨).

(٢) هو التابعي الثقة أبو بردة حارث، وقيل: عامر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، ثقة، كثير الحديث، تولى قضاء الكوفة للحجاج، ثم عزله بأخيه أبي بكر، ثم طلبه يزيد بن المهلب على بعض أمور الولاية، فامتنع وأصرّ حتى أعفاه منها، اختلف في وفاته، فقيل سنة (١٠٣هـ وقيل: ١٠٧هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٣).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن (٥/ ١٥٦ رقم ٤٣٤٢).

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٩١).

والمعنى الثاني: بمعنى تمييز المقصود بالعمل وهل هو لله وحده لا شريك له، أم لله وغيره، وهذه هي النية التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه وهي التي توجد كثيراً في كلام السلف المتقدمين...)(١).

والأدلة على هذا الأصل في القرآن والسنة وكلام السلف ومن سار على نهجهم كثيرة. فمن القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ (الزمر: ٢ ـ ٣).

قال ابن كثير: (أي لا يقبل الله من العمل، إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له)(٢).

وقوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤﴾ (الزمر: ١١ ـ ١٤) وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩﴾ (الأعراف: ٢٩).

قال ابن كثير: (أي أمركم بالاستقامة في عبادته في محلها، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله، وجاؤوا به من الشرائع وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من الشرك)(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (النساء: ١٢٥) قال ابن القيم: (فإسلام الوجه: إخلاص القصد، والعمل لله...)(٤).

ومن الأحاديث النبوية:

١ ـ قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته

---

(١) جامع العلوم والحكم (٨).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٧٨).
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ١٥٨).
(٤) مدارج السالكين (٢/ ٩٠).

إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[(١)].

قال ابن رجب رحمه الله في شرحه لهذا الحديث: (... فهذا يأتي على كل أمر من الأمور... وهو أن حظ العامل من عمله نيته... وأنه لا يحصل له من عمله إلا ما نواه به، فإن نوى خيراً حصل له خير، وإن نوى شرّاً حصل له شر... وهاتان كلمتان جامعتان وقاعدتان كليتان لا يخرج عنهما شيء...)[(٢)].

وقال الشوكاني[(٣)] رحمه الله في مقدمة أدب الطالب عند ذكره لهذا الحديث: (... حصول الأعمال وثبوتها لا يكون إلا بنية، فلا حصول أو لا ثبوت لما ليس كذلك، فكل طاعة من الطاعات، وعبادة من العبادات إذا لم تصدر عن إخلاص نية وحسن طوية، لا اعتداد بها ولا التفات إليها؛ بل هي إن لم تكن معصية فأقل الأحوال أن تكون من أعمال العبث واللعب...)[(٤)].

٢ ـ وفي الحديث الصحيح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**ثلاث لا يغل عليهم قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم...**»[(٥)].

قال ابن القيم: (أي لا يبقى فيه غل، ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غله وتنقيه منه، وتخرجه عنه، فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل، وكذلك يغل على الغش، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة، فهذه الثلاثة تملؤه غلاً ودغلاً، ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه بتجريد الإخلاص والنصح ومتابعة السنة)[(٦)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي (١/ ٢).
(٢) جامع العلوم والحكم (٧ ـ ١١).
(٣) هو العلامة المجتهد محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليماني، فقيه مفسر، ترك المذهب الزيدي، ونصر السنة ولي قضاء صنعاء، ودرس بجامعها وأفتى، له مؤلفات كثيرة تدل على سعة علمه وجودة فهمه بلغت ١١٤ مؤلفاً، وكان يرى حرمة التقليد، توفي (١٢٥٠هـ)، انظر: الأعلام للزركلي (٦/ ٢٩٨).
(٤) أدب الطالب المسمى طلب العلم وطبقات المتعلمين (٥).
(٥) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب من بلغ علماً (١/ ٨٤).
(٦) مدارج السالكين (٢/ ٩٠).

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري، فهو للذي أشرك فيه وأنا منه بريء»[١].

وعن أبي أمامة[٢] قال: (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: «أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ قال ﷺ: «لا شيء»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه**»[٣].

وعن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الغزو غزوان، فأما من غزا ابتغاء وجه الله تعالى وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة وياسر الشريك، واجتنب الفساد في الأرض، فإن نومه ونُبْهَهُ أجر كله، وأما من غزا فخراً ورياء وسمعة، وعصى الإمام، وأفسد في الأرض، فإنه لن يرجع بالكفاف**»[٤].

وعنه ﷺ أنه قال: «**من طلب العلم ليماري به السفهاء أو يجاري به العلماء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله في النار**»[٥].

وفي حديث أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه، رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمته فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت: قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريءٌ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: قارىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك**

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في علمه غير الله (٦/ ٢٢٨٩).
(٢) هو صدي بن عجلان بن وهب، أبو أمامة الباهلي، صاحب رسول الله ﷺ مختلف في سنة وفاته، قيل: (٨٦هـ)، وقيل: (٨١هـ)، تهذيب التهذيب (٤/ ٤٢٠).
(٣) أخرجه النسائي، كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر (٦/ ٢٥).
(٤) أخرجه النسائي، كتاب الجهاد، باب فضل التفقه في سبيل الله (٦/ ٤٨).
(٥) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة (٢/ ١٥١٣).

فعلت ليقال: جواد، وقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار»[١].

وأما ما ورد عن السلف في الإخلاص: فهو كثير وفير، إليك قليل من أقوالهم:

١ ـ عن علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود ﵄ قالا: (لا ينفع قول إلا بعمل، ولا عمل إلا بقول، ولا قول وعمل إلا بنية، ولا نية إلا بموافقة السنة)[٢].

٢ ـ وعن أبي العالية[٣] قال: (كنا نحدث منذ خمسين سنة، أن الأعمال تعرض على الله تعالى ما كان له منها قال: هذا لي وأنا أجزي به وما كان لغيره قال: اطلبوا ثواب هذا ممن عملتم له)[٤].

٣ ـ وعن مطرف بن عبد الله[٥] أنه قال: (صلاح القلب، بصلاح العمل، وصلاح العمل، بصحة النية)[٦].

٤ ـ وعن يحيى بن أبي كثير[٧] أنه قال: (تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل)[٨].

٥ ـ ومما روي عن الفضيل بن عياض[٩] أنه تلا قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (تبارك: ٢) فقال: (أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إذا كان العمل خالصاً ولم يكن صواباً، لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً، لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص إذا كان لله ﷻ، والصواب إذا

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة (٢/ ١٥١٣).

(٢) الشريعة للآجري (١٣١).

(٣) هو رفيع بن مهران الإمام المقرىء الحافظ المجود أبو العالية الرياحي، أدرك زمن النبي ﷺ وهو شاب وأسلم في خلافة أبي بكر، ودخل عليه توفي عام (٩٠هـ) تهذيب التهذيب: (٤/ ٢٨٤ ـ ٢٨٦).

(٤) كتاب الزهاد لهناد بن السري (٢/ ٤٣٦).

(٥) هو مطرف بن عبد الله بن الشخير الحرشي العامري، أبو عبد الله زاهد من كبار التابعين توفي (٨٧هـ) انظر: الأعلام (٧/ ٢٥٠).

(٦) حلية الأولياء (٢/ ١٩٩).

(٧) هو يحيى بن صالح الطائي بالولاء اليماني، أبو نصر ابن أبي كثير، عالم أهل اليمامة في عصره، توفي (١٢٩هـ). انظر: تهذيب التهذيب (١١/ ٢٢٦٨).

(٨) حلية الأولياء (٣/ ٧٠).

(٩) هو أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود الطلقاني الأصل، الزاهد العابد الثقة، كان أول أمره يقطع الطريق، ثم تاب وسمع الحديث، وانتقل إلى مكة، ومات بها سنة (١٨٧هـ) حلية الأولياء (٨/ ٨٤).

كان على السنة)[١].

الشرط الثاني في قبول العبادة:

الموافقة للشرع: وهذا الشرط تعلق بالعمل سواء كان عمل القلب، وهو ما يسمى بالاعتقاد، أو عمل الجوارح. وهذان هما مدار العبادة، ومحل الإيمان الذي هو اعتقاد بالجنان، ونطق باللسان وعمل الأركان، فلا بد من متابعة الشرع والانقياد له في أعمال القلوب كالحب والبغض، وفي أعمال الجوارح، التي يتعبد بها الإنسان، وسوف أذكر بعض الأدلة على هذا الأصل من الكتاب والسنة، وكلام السلف.

أما الأدلة من القرآن فكثيرة منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ (الأنعام: ١٥٣).

٢ ـ وقوله سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ (المائدة: ٣).

٣ ـ وقول تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ (النساء: ١٢٥).

ومن السنة:

١ ـ قوله ﷺ: **«تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله»**[٢].

٢ ـ قوله ﷺ: **«أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»**[٣].

٣ ـ قوله ﷺ: **«من أحدث في أمرنا ما ليس منه، فهو رد»**[٤].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٨٩).
(٢) رواه مالك في الموطأ بلاغاً، في كتاب القدر، باب النهي عن قول القدر (٢/ ٨٩٨).
(٣) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالسنة، باب الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ (٨/ ١٣٩).
(٤) رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة (٢/ ١٣٤٣ ـ ١٣٤٤).

٤ ـ وعن العرباض بن سارية[١] قال: قال رسول الله ﷺ: **«لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ بعدي عنها إلا هالك»**[٢].

من كلام السلف عليهم رضوان الله:

١ ـ عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع، ولن نضل ما تمسكنا بالأمر)[٣].

٢ ـ وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: (إنا ناساً يجادلونكم بشبه القرآن، فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله ﷻ)[٤].

٣ ـ وعن مطرف بن عبد الله يقول: سمعت مالك بن أنس إذا ذكر عنده الزائغين في الدين يقول: قال عمر بن عبد العزيز ﷺ: (سَنَّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سنناً، الأخذ بها اتباع لكتاب الله ﷻ، واستكمال لطاعة الله ﷻ، وقوة على دين الله تبارك وتعالى، ليس لأحد من الخلق تغييرها، ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدى بها فهو مهتدٍ، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين، ولاه الله تعالى ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً)[٥].

وقد ورد عن السلف من هذا القبيل كثير، وفي هذا القليل الذي ذكرناه ما يسد حاجة الاستدلال هنا.

وبعد ذكر شرطي العبادة المقبولة عند الله ﷻ ـ يتبين أن (. . . دين الإسلام مبني على أصلين: أن نعبد الله وحده لا شريك له، وأن نعبده بما شرعه من الدين، وهو ما أمرت به الرسل. .)[٦].

وهذان الأصلان هما من حقيقة كلمة التوحيد، والركن الأول من هذا الدين، كما

(١) هو العرباض بن سارية السلمي، كان من أهل الصفة، نزل حمص ومات زمن فتنة ابن الزبير، = قيل توفي (٧٥هـ) بالشام، انظر: الإصابة (٢/ ٢٦٦).
(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين (١/ ١٤).
(٣) شرح أصول الاعتقاد، أهل السنة والجماعة، للالكائي (١/ ٨٦).
(٤) الشريعة للآجري (٤٨).
(٥) المرجع السابق (٦٥)، وأورده اللالكائي بسنده (١/ ٩٤).
(٦) مجموع الفتاوى (١/ ١٨٩).

قرر ذلك شيخ الإسلام حين قال: (ودين الإسلام مبني على أصلين وهما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأول ذلك أن لا تجعل مع الله إلهاً آخر...).

الأصل الثاني: (أن نعبده بما شرع على ألسن رسله...)(١).

(وبالجملة، فمعناه أصلان عظيمان، أحدهما: ألا نعبد إلا الله، والثاني: أن لا نعبده إلا بما شرع، ولا نعبده بعبادة مبتدعة)(٢).

إن الغاية من خلق الإنسان وكتابة الموت والحياة عليه واضح في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (تبارك: ٢) والأحسن عملاً يتضمن أمرين، كما فسر ذلك الفضيل بن عياض ﷺ عندما قال: (أحسنه أي أخلصه وأصوبه)(٣). فأخلصه هو (لا إله إلا الله). وأصوبه هو (محمد رسول الله) وهو الذي أشارت إليه سورة الفاتحة، أم القرآن الكريم ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ (الفاتحة: ٦ ـ ٧).

والذين أنعم الله عليهم هم الرسول ﷺ، وصحابته ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ والذين ساروا على هذا ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، أي الصواب الموصل للغاية وهذا الطريق وسط بين طريقين(٤).

وبهذا يتضح فساد طريق العباد الروحانيين من نصرانية محرفة أو شعوذة، أو صوفية باطلة، أساسها الجهل فزاغت عن الطريق وتجنبت الإصابة المنشودة، وإن صلحت نياتهم ومقاصدهم، وخلوصهم من كل شائبة شرك لأحد آخر، إلا إنهم ابتعدوا عن المنهج الرباني المرسوم في قبول العبادة.

وكذلك يتضح فساد طريق علماء السوء، الذين أخطئوا الغاية من العلم، فما صلحت غايتهم، وإن كانوا على بينة من الطريق، لكن أعينهم تنظر إلى غاية أخرى يتلمسوها على جنبات الطريق، ففقدوا التثمير والإخلاص المقصود والمنشود، فسقطوا

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٣١١).
(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٣٣٣).
(٣) البغوي ـ معالم التنزيل، تفسير البغوي (٤/ ٢٦٩).
(٤) انظر: ابن القيم، إغاثة اللهفان (١/ ٢٤).

دون الغاية الكبرى، المتعبدين بالسير نحوها ويذكر عادة كمثال لهؤلاء السالكين اليهود، الذين غضب الله عليهم، لتنكبهم الصراط المستقيم عن علم[١].

أما الوسط فهو الصراط المستقيم الذي هو عين الوسطيَّة، وبذلك يتضح أن شرطي قبول العبادة دليل على وسطيَّة القرآن في باب العبادة.

المبحث السابع
أقسام العبودية في القرآن الكريم

تنقسم العبودية في القرآن الكريم إلى أقسام:

أولاً: عامة، وهي عبودية الربوبية، وهي لكل الخلق قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ (مريم: ٩٣) ويدخل في ذلك الكفار.

ثانياً: عبودية خاصة، وهي عبودية الطاعة قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (الفرقان: ٦٣).

وهذه تعم كل من تعبد لله بشرعه.

ثالثاً: خاصة الخاصة، وهي عبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام قال تعالى عن نوح: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء: ٣) وقال عن النبي ﷺ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ (البقرة: ٢٣).

وقال في آخرين من الرسل: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ (ص: ٤٥). فهذه العبودية المضافة إلى الرسل خاصة، لأنه لا يباري أحد هؤلاء الرسل في العبودية[٢].

ومن أجل تركيز معنى العبودية كان خطاب الله تعالى للخلق، ووصفه لهم، ودعائه إياهم بهذا العنوان المتكرر: (عبادي)، أو ما ماثله من الألفاظ وقد وصف الله به الكفار ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ (الفرقان: ١٧).

---

(١) انظر: الوسطيَّة في الإسلام (٢٩).

(٢) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين (٢٩).

obeikandl.com

ووصف به المؤمنين: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦﴾ (العنكبوت: ٥٦).

والمذنبين منهم: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ (الزمر: ٥٣). وهو وصف الله تعالى للملائكة: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٦).

والرسل: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١﴾ (الصافات: ١٧١).

والمسيح ابن مريم منهم خاصة؛ لأنه اتخذ إلهاً من دون الله ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩﴾ (الزخرف: ٥٩) ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾ (النساء: ١٧٢).

ومن وسطيَّة القرآن وحكمته بيانه أن العبودية والعبادة لغير الله هي أعتى أباطيل الجاهليات، وهي ذل ومهانة للإنسان، لأنها خضوع لغير من يستحق ذلك، وانقياد للمشارك في الوصف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤﴾ (الأعراف: ١٩٤) ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠﴾ (النحل: ٢٠) والدعاء في الآيتين بمعنى العبادة.

لذلك كانت العبودية لله تعالى وحده حقّاً بموجب الخلق، والرزق، وشمول قدرته وسائر ما تفرد به من صفات الكمال والجلال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١).

فعبادة الله تعالى بهذا الوجه هي الكرامة، والعزة؛ لأنها خضوع في موضعه للمتفرد باستحقاقه، رب الكون ومليكه، وصاحب العظمة والكبرياء، والمتفضل بالعطاء والنعماء.

ولذلك كان هذا الوصف أجل أوصاف التشريف، وقد اختاره الله تعالى لأكرم رسله، في أعظم مواقف تكريمهم، فيقول الله تعالى عن خاتم رسله في مشهد الإسراء: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ (الإسراء: ١). وفي مشهد العروج حيث بلغ التكريم أقصاه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠﴾ (النجم: ٨ ـ ١٠).

obeikandl.com

ومن أجل تحقيق العبودية لله وحده ندد الوحي الإلهي أشد تنديد بعبادة غير الله تعالى، وقرع العابدين والمعبودين ـ إن رضوا بذلك ـ وتوعدهم جميعاً بخزي الدنيا والآخرة، ومن ذلك:

أ ـ تنديده بعبادة أكرم خلقه من الملائكة، والرسل، وسؤالهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (سبأ: ٤٠ ـ ٤٢).

والآية تنديد أيضاً بعبادة الجن، وتبرئته للملائكة من وصمة الرضا بما زعمه الزاعمون من مشركي الجاهليات:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ (المائدة: ١١٦ ـ ١١٨).

ب ـ ومن أبلغ ألوان التنديد القرآني وأشدها زجراً واستنكاراً، ما جاء في شأن الطواغيت الأحياء من سادات الأمم، ورؤسائها وكبرائها، الذين عُبِدُوا من دون الله، سواء عبادة تأليهية، أو عبادة طاعة واتباع في الحلال والحرام، على خلاف أوامر الله تعالى مع اعتقاد ذلك.

فمن الأول ما جاء في شأن فرعون، وتقديس قومه له، واعتقادهم فيه ما ادعاه من الألوهية: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ (القصص: ٣٨) والربوبية: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ (النازعات: ٢٤) من أجل ذلك استحقوا التنديد، والعذاب: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (الزخرف: ٥٤ ـ ٥٦).

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

openkanari.com

وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ (التوبة: ٣١) والقرآن الكريم بعد ذلك غاص بتبكيت الذين عبدوا الأحجار، والشمس، والقمر، والعجول وغيرها من خلق الله ﷻ، وهو يحدد في غاية الوضوح أن كل عبادة لا يعتد بها إلا إذا كانت خالصة لله ﷻ وحده، لا يخالطها دنس الشرك أو الرياء ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ (الكهف: ١١٠).

المبحث الثامن
أهمية الجانب العبادي في حياة الإنسان

إن مهمة الجانب العبادي للإنسان تعتبر ركناً أصيلاً في المنهاج الإلهي، الذي شرعه الله تعالى على غاية العلم والحكمة، وجعله بناء محكماً يشد بعضه بعضاً، ويؤدي كل جانب فيه عمله الخاص أو العام على غاية التفرد، والتفوق والامتياز، ويظن بعض الناس أن العبادات في المنهاج الإلهي هي ضروب من الطقوس، أو المراسيم الشكلية فرضت على العباد فرضاً لغاية دينية محضة، هي إظهار الذل والخضوع لله تعالى فقط، وليس لها وظائف عظمى تابعة.

والحق أن العبادات التي سنها الله لنا ذات تأثير شمولي مشرق، ولها أخطر المهمات في تمكين الحقائق العليا للرسالات الإلهية، وتحقيق الفطرة الإنسانية على وجهها الصحيح المستقيم، طالما تمثلت فيها عناصر الحب والذل، والرجاء والخوف، ونحوها. ومعلوم لدى العلماء أن للعبادة مقصداً أصلياً، وهو التوجه إلى الواحد الصمد، وإفراده بالعبادة في كل حال، طلباً لرضى الله، والفوز بالدرجات العلى، وهناك مقاصد تابعة للعبادة مثل صلاح النفس واكتساب الفضيلة[1].

فالصلاة مثلاً أصل مشروعيتها الخضوع لله تعالى، وإخلاص التوجه إليه، والانتصاب على قدم الذلة والصغار بين يديه، وتذكير النفس بذكره، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ (طه: ١٤) وقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ (العنكبوت: ٤٥) يعني أن اشتمال الصلاة على التذكير بالله هو المقصود

(١) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤٥٥).

الأصلي، ثم إن لها مقاصد تابعة كالاستراحة إليها من أنكاد الدنيا وإنجاح الحاجات كصلاة الاستخارة وصلاة الحاجة، وكذلك سائر العبادات لها فوائد أخروية وهي العامة، وفوائد دنيوية وهي كلها تابعة للفائدة الأصلية وهي الانقياد والخضوع لله[١].

وإذا تأملنا في مهمة العبادة يمكننا أن نستخلص الآتي:

أولاً: تثبيت الاعتقاد:

إن روح العبادة هو إشراب القلب حب الله تعالى، وهيبته، وخشيته، والشعور الغامر بأنه رب الكون ومليكه، والتوجه دائماً بما شرع من شعائر ونسك، باعتبارها مظهراً عملياً دائباً لصدق الإنسان في دعوى الإيمان، وتذكيراً مستمراً بسلطان الإله الأعلى، وإلهاباً متجدداً لجذوة اليقين في الله، ورجاء فضله وثوابه.

ولنأخذ مثالاً عبادياً لتثبيت معنى التوحيد، وإجلال الله تعالى، وهو (الأذان) وقد شرع بدخول أوقات الصلاة المفروضة، فهو يتكرر في اليوم والليلة خمس مرات، وينادي به منادي المسلمين صوتاً في كل مكان يوجد به تجمع إسلامي، ولو كان أدنى الجمع من المسلمين، بل شرع مع ذلك للمسافر، والمنفرد، ولو كان في بادية لما يمثله من معانٍ عظيمة ليس مجرد الإعلام بدخول الوقت.

إن المؤذن حين ينادي بصوته الأعلى: (الله أكبر الله أكبر) ثم يكررها، يطلب شرعاً أن يردده معه كل مسلم ومسلمة حين يسمعون هذا القول الأجل، لينسكب في مشاعر الجميع وفي أوقات متكررة متقاربة معنى الكبرياء المطلق لله رب العالمين، وأنه تعالى فوق كل شيء وأكبر من كل شيء فينبغي أن يعتز به وحده، ويلوذ بحماه وكنفه، ويستعلي فوق أعناق الطواغيت والجبارين بهذا النداء الجهير، الذي أراد الله ﷻ أن يتواطأ عليه المجتمع كله، وأن يظل حتى المنفرد على صلة دائمة به.

فإذا تقرر هذا المعنى عاد النداء الأجل ليملأ الآفاق: (أشهد أن لا إله إلا الله) وهو تذكير يومي بالعهد والميثاق الذي أعطاه العبد لربه بأن لا يعبد ولا يطيع إلا ربه الأكبر، المتفرد بالكبرياء في السمٰوات والأرض.

---

(١) انظر: العبادة في الإسلام للشيخ القرضاوي (٤٨ ـ ٤٩).

ثم يأتي الشق الثاني من الشهادة: (أشهد أن محمداً رسول الله) وهو كما علمت إقرار متكرر أيضاً بالطريق الذي تؤخذ عنه العبادة المشروعة، والتي لا تصح إلا بالتلقي عن الوحي الإلهي الذي جاء به المعصوم ﷺ.

ثم يأتي رابعاً: الدعوة إلى الصلاة نفسها في جملتين فقط: (حي على الصلاة، حي على الصلاة) لأن الأذان كما قلنا أبعد مدى، وأشمل آثاراً، ثم يأتي (خامساً) الدعوة العامة إلى الفلاح المطلق.. المتمثل في الاستجابة لهذا الدين الإلهي الأغر، ومثله وتعاليمه، وفي مقدمتها الصلاة بداهة. ولذلك يعود الشارع بالمؤذن إلى نقطة البدء ليكبر في الختام للتأكيد على تفرده تعالى بالكبرياء، وإعلان التوحيد بصيغة الإقرار والإثبات بعد صيغة الشهادة السابقة: (الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله) معنى هذا أن الأذان وحده يجري على ألسنة المؤمنين، ويسكب في ضمائرهم، ويغرس في حياتهم ووجدانهم إفراد الله تعالى بالكبرياء (ثلاثين) مرة يومياً، وإفراده تعالى بصفة الألوهية الذي تفرده بالعبادة والطاعة (خمس عشرة) مرة، وهو نداء لا يتقيد بحدود معبد، أو مسجد، وإنما ينطلق ليدخل كل بيت، ويصافح كل سمع، ويطرق كل قلب يريد الهدى.

وإذا كان هذا هدف الوسيلة في تقرير الأصول العليا فإن القصد الذي تؤدي إليه (وهي الصلاة) أعظم شأناً، وأتم مظهراً. فقد فرضها الله على كل بالغ من الذكور والإناث خمس مرات في اليوم والليلة، وهي تبدأ بالتكبير ويطلب المصلي بتكرر هذه الجملة (الله أكبر) في صلوات الفرض فقط (أربعاً وتسعين مرة)، عدا ما يقرع سمعه بعددها من صلوات إمامه إذا صلى جماعة، فضلاً عن السنن الراتبة والنوافل المطلقة وهي أضعاف ذلك.

ثم إن العبد يتلو كتاب ربه في صلاته، ويحني له ظهره راكعاً، ويخر بجبهته ساجداً، ويناجي مولاه معظماً، ومسبحاً، وحامداً، وداعياً، وليس هناك في الوجود أسمى وأجل من هذه الشعيرة في ربط العبد بهذا السلطان الإلهي، وإلهاب نفسه بمعاني عظمته وسموه[1].

إن الصلاة عندما تؤخذ على وجهها الصحيح ـ واحة وراحة يسكن إلى ظلها المؤمن كلما مسه تعب الحياة ولغوبها، وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ

(١) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤٥٨).

خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (المعارج: ١٩ ـ ٢٣).

ثانياً: تأسيس وتثبيت القيم الأخلاقية:

فقد جاء المنهاج الرباني في العبادة ليتمم مكارم الأخلاق، ويدعو الناس إلى المثل العليا، والفضائل الكريمة كالصبر، والمثابرة، والسماحة، والسخاء، والصدق، والتراحم، والمواساة، والأمانة. وغيرها من القيم التي تقوم عليها قيمة الفرد والمجتمع، والتي تحقق للإنسان سعادته في الدنيا فضلاً عن الآخرة، وللعبادات بأنواعها مهمة عظيمة في تثبيت هذه الأخلاق، وتدعيمها، وغرسها في نفس المؤمن ووجدانه، (فالصلاة) مثلاً تعوِّد المؤمن الصبر، والدأب، والإخلاص والنظام، حتى تصبح جميعاً خلقاً راسخاً في النفس، فالمسلم النائم حين يقوم من لذة الذكرى على نداء المؤذن (الصلاة خير من النوم)، وكذلك حين ينسحب من ضجيج الأسواق والبيع والشراء مُلبياً لنداء (حي على الصلاة)، ثم لا يزال دأبه هكذا عبر الساعات، والأيام، والأعوام، فهذا وأمثاله لا بد أن تتربى فيهم هذه المعاني الخلقية العالية.

و(الزكاة) التي أخذت من معنى الزيادة، والنماء، والتطهير، لها ـ هي الأخرى ـ أكبر الأثر في تنقية الخلق من زخم الشح والبخل والإمساك، وفي طبعه بطابع البذل، والعطاء، والسخاء، كذلك تستل سخيمة صدور المحتاجين، وتبدل به شيئاً من خلق الحب، والمودة، أو على الأقل سلامة الصدر، فتشيع في المجتمع تبعاً لذلك كل علائق التداني والتقارب، وتتداخل صلاة الناس بمشاعر الألفة، وإلى مثل هذا يشير قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (التوبة: ١٠٣).

و(الصوم) له عمله الأساسي في تربية الإرادة الإنسانية، والضمير الحي اليقظ الذي يتعامل على أساس من رقابة الله تعالى له، واطلاعه عليه، فضلاً عن غرس خليقة الصبر، والضبط النفسي بالإمساك الطويل عن شهوتي البطن والفرج، وبالكف عن اللغو، والصخب، والقدرة على تغيير عاداته حتى لا يتعود الجمود، أو تستعبده عاداته وتقاليده[1].

(١) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤٦٠).

ثالثاً: إصلاح الجانب الاجتماعي:

ويظهر ذلك في الصلاة ودورها في إيجاد العلاقات الاجتماعية.

وذلك واضح في الحكمة من صلاة الجماعة، لأن اجتماع المسلمين راغبين في الله، راجين، راهبين، مسلمين وجوههم إليه خاصة عجيبة في نزول البركات، وتدلي الرحمة فيحدث التعاون، والتعارف، والوحدة والاجتماع على فعل الخير.

ثم تأتي صلاة الجمعة: فتجمع أهل الحي على هيئة جامعة أكثر من ذلك في كل يوم جمعة، حيث شرع الله لنا خطبتها تذكيراً وتعليماً للمسلمين بما يصلح دينهم ودنياهم، كحد أدنى للتثقيف العام في أمور الدين، ثم تأتي صلاة العيد. فتجمع أهل المدينة كلهم مرتين في السنة في عيد الفطر والأضحى، يخرجن الأبكار والعواتق(١)، بل والحيض يشهدن الخير ودعوة المسلمين، ويعتزلن المصلى كما جاء في الحديث الصحيح الذي ترويه أم عطية(٢) رضي الله عنها قالت: (أمرنا أن نخرج العواتق وذوات الخدور(٣))(٤).

هذا عدا ما شرعه تعالى لنا من صلوات جامعة في مناسبات شتى، كالاستسقاء، والخسوف، والكسوف، والجنائز، والتراويح في رمضان، إن الصلاة ـ لو وعي المسلمون حقيقتها ـ لهي توجيه وتنظيم اجتماعي كامل، يتمثل فيه المجتمع الكبير، بقدر ما يحسن المسلمون هذه الصلاة، وما تعنيه من معانٍ وتوجيهات، بقدر ما يرجى لهم إحسان الحياة في اجتماعاتهم، ولا فرق في هذا المنهاج بين المسجد والمجتمع، فكلاهما تجمّع يجب أن يخضع لدين الله وتعاليمه(٥).

أما الزكاة: هي في حقيقتها واجب مالي يؤخذ من الأغنياء ليرد على الفقراء وذوي الحاجة من الغارمين، والأرقاء وغيرهم، وهي بذلك تمثل الحد الأدنى المفروض فرضاً للتعاون الاجتماعي، والتكافل الاقتصادي بين أبناء الأمة الواحدة، لذلك جعل الله تعالى معظم مصارفها اجتماعية بحتة، بأوسع المدلولات الاجتماعية في القديم أو

---

(١) العواتق: جمع عواتق وهي التي عتقت من الخدمة أو من قهر أبويها.
(٢) هي نسيبة بنت الحارث، وقيل: نسيبة بنت كعب، من فقهاء الصابئة، توفيت (٧٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٣١٨).
(٣) ذوات الخدور: الستور.
(٤) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب خروج النساء والحيض إلى المصلى (٢/ ٩).
(٥) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤٦٢).

الحديث على السواء، وكما جاءت صلاة العيد لتوسع دائرة الاجتماع في الصلاة، تأتي هنا أيضاً (زكاة الفطر) لتوسع قاعدة التكافل، والتعاون إلى أقصى حد.

أما الأثر الاجتماعي لفريضة (الحج) فواسع شامل، ولا زالت آثاره تظهر كل يوم بجديد من حكمة الله تعالى في تشريعه، وقد أشار القرآن الكريم إلى كثير من ذلك، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٩٨).

روى البخاري بسنده عن ابن عباس قال: (كانت عكاظ، ومجنة، وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتاجروا في موسم الحج، فسألوا رسول الله فنزلت الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ (البقرة: ١٩٨)[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ (الحج: ٢٧ ـ ٢٨).

والمنافع المشهودة كلمة جامعة، تشمل المنافع الروحية، والمادية والاجتماعية، والسياسية، والثقافية، والاقتصادية وسائر ما يطلق عليه اسم (المنفعة)، وقد جعلت غاية من غايات الحج وتقديمها على ذكر الله تعالى إيذان ببالغ أهميتها في مراتب المنافع والحكم الشرعية، وإن من أعظم هذه الفوائد جمع أطراف الأمة المسلمة كل عام، وما يحققه من استنفار جزء من كل إقليم سنوياً ليركبوا الأخطار والأسفار، ويقطعوا السهول والقفار، أو يمتطوا الأجواء والبحار، ويتركوا الأولاد والأهل والديار فيجتمع المسلمون من أطراف الأرض، ويلتقى الشرقي بالمغربي، والمصري بالهندي، في مؤتمر جامع، ورحلة مباركة، وليحققوا عمليّاً دعوة القرآن بالسير في الأرض، والسياحة في الآفاق، ومطالعة المشاهد المقدسة، ومنازل الوحي، وآثار النبوة منذ أبي الأنبياء إبراهيم إلى خاتمهم محمد صلى الله عليهم جميعاً وسلم، ثم مدارج الصحابة رضوان الله عليهم، التي تهب على المسلمين منها روح الإخلاص، والبذل، والعطاء، والانقياد المطلق لأمر الله ﷻ[(٢)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ليس عليكم جناح (١٨٦/٥ رقم ٤٥١٩).

(٢) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤٦٥).

ومن ناحية أخرى فالحج نظام: يوجب على الجميع زيّاً واحداً، وحركة واحدة، وكلمة واحدة، وطاعة واحدة وبتثبيت الاعتقاد، والأخلاق، وإصلاح الاجتماع تأخذ العبادات الإسلامية دورها العظيم في بناء الحياة الإنسانية على أرفع القواعد، وأنبل الغايات، وأكرمها وأطهرها، وتأخذ بالإنسان إلى أفق أرفع من التراب والطين، ومتاع الحياة الفانية، حيث تربطه بالحي الباقي، وبالنعيم الخالد، فهي غسيل مستمر لأدران المادة، وتهذيب لطغيانها... وعبادات الإسلام تقوم في أساسها على مراعاة الرقابة الإلهية، وابتغاء الآخرة، دون واسطة بين العبد وربه في العبادات كلها، وحرر الإنسان من عبودية الكهانة، وطقوسها ورسومها[1] ومنهج القرآن في العبادة مبني على الحكمة والاعتدال والاستقامة التي هي من أبرز ملامح الوسطيَّة.

المبحث التاسع
التوجيهات القرآنية في مجال العبادة

تمهيد: إن الجاهلية أفسدت العقائد والأفكار، وأفسدت العبادات والشعائر، وأفسدت الأخلاق والآداب، وأفسدت النظم والتقاليد، وأفسدت الحياة كلها، وأصابت الأديان كلها فانحرفت عن الصراط المستقيم.

وعندما أراد الله أن يبعث سيد المرسلين بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، كانت الدنيا مليئة بالعبادات والشعائر بعضهما بقايا أديان سماوية، وبعضهما إضافات بشرية، وابتداعات شيطانية، ففقد معنى التعبد وروحه ومعنى الإخلاص لرب العالمين. وأصبحت البشرية ضائعة بين أديان تشتتت وتعنتت وتزمتت، وأخرى ترخصت وغلت في الترخيص، وأصبح الديانة كأنها لهو ولعب، وأصبح بعض البشر لا دين لهم وجاء الإسلام، فلم يحاب الغالين، ولم يوافق المنحرفين، بل شرعه الله ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ لا عوج فيه، ولا غلو ولا تقصير؛ بل كان كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٤).

---

(١) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤٦٨).

إن في القرآن الكريم عدة توجيهات ومبادىء إصلاحية كانت ولا تزال هي حجارة الأساس، التي يقوم عليها صرح العبادة الشعائرية في الإسلام[١].

وهذه الإصلاحات، والتوجيهات، والمبادىء العظيمة تدل بكل وضوح على وسطيَّة القرآن في مجال العبادة. ومن هذه التوجيهات في مجال العبادة:

أولاً: لا يعبد إلا الله:

في الفترات التي طال فيها الأمد على دعوة الرسل فنسيت أو حرفت، ضل الناس وعبدوا أنواعاً من الآلهة لا يكاد العقل يصدقها. فهناك قوم عبدوا الشمس، كما حكى القرآن عن ملكة سبأ وقومها على لسان هدهد سليمان: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (النمل: ٢٤) وهناك طائفة عبدت الجن كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ (سبأ: ٤١).

وهناك من عبد الأصنام والأوثان واشتهر بذلك مشركو العرب، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً، فجعل يطعن بسيفه في وجوهها وعيونها ويقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ (الإسراء: ٨١) وهي تتساقط على رؤوسها، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت.

وضل اليهود والنصارى عن طريق التوحيد، وزحفت عليهم الوثنيات فأفسدت عليهم دينهم، ونسب اليهود إلى الله ما لا يجوز أن ينسب من صفات النقص والندم والتعب، ومر بنا ذلك بالتفصيل وأصبحت النصرانية مزيجاً من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية، والمهم أن القوم عبدوا المسيح الذي كان من أشد الناس عبادة لله، واعترافاً بعبوديته لربه: واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، ذلك هو الشرك الذي انتشر في الآفاق قبل نزول القرآن، وتلك هي الوثنية الجاهلية التي سيطرت على عقول الناس وأفكارهم وتصوراتهم وعقائدهم.

وجاء الإسلام يدعو إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة كل ما سواه ومن سواه من

---

(١) انظر: العبادة في الإسلام (١٣٠).

الآلهة المزعومين، والأرباب المزيفين، سواء كانوا من البشر أم من الجن أم أي عالم من عوالم المخلوقات العلوية والسفلية، إن القرآن الكريم بيّن التوحيد بأنواعه، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، الذي هو إفراد الله بالعبادة. إن سر الإسلام ـ على سعة تعاليمه ـ يتجلى في دستوره الخالد: القرآن الكريم، وسر هذا الدستور يتركز في الفاتحة: أم القرآن والسبع المثاني، وسر هذه الفاتحة يتلخص في هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ (الفاتحة: ٥).

إن أول وصية في القرآن، وأول مبدأ يبايع عليه الرسول كل من اعتنق دينه هو: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ (النساء: ٣٦).

وأول ما دعا إليه رسول الإسلام ملوك الأرض وأمراءها هو هذه القضية الكبرى: أن يعبد الله وحده لا شريك له وأن تطرح الآلهة والأرباب التي اتخذها الناس من دون الله، فأذلوا أنفسهم لمن لا يستحق الذل والخضوع، ومن هنا كان الرسول ﷺ يختم رسائله إلى قيصر والنجاشي، وغيرهما من أصحاب الملك والإمارة بهذه الآية الكريمة من سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾ (آل عمران: ٦٤).

بل عد القرآن أن هذه الدعوة هي دعوة الرسل جميعاً، فكلهم دعا قومه إلى عبادة الله وحده، واجتناب عبادة الطاغوت، وكل ما عبد من دون الله فهو طاغوت، فهما معبودان لا ثالث لهما: إما الله وإما الطاغوت، ومن استكبر عن عبادة الله سقط ـ حتماً ـ في عبادة الطاغوت.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦).

وقال سبحانه مخاطباً خاتم رسله محمداً ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ (الأنبياء: ٢٥).

شدَّد الإسلام حملته على الشرك، وقعد له كل مرصد، وحاربه بكل سلاح، وقرر أنه الإثم العظيم، والضلال البعيد، والجرم الأكبر، والذنب الذي لا يغفر قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا

عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ (النساء: ٤٨) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ (النساء: ١١٦).

وبين القرآن الكريم أنه ليس في العالم المخلوق شيء يستحق أن يسجد له الإنسان أو يتضرع إليه أو يرجوه أو يخشاه، فالملائكة عباد الله خاشعون خاضعون ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠) ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ (التحريم: ٦) ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأنبياء: ٢٧ ـ ٢٨).

والبشر وإن علا سلطانهم، أو عظم قدرهم، أنبياء كانوا أو سلاطين، هم أيضاً عباد لله، لا يملكون لأنفسهم، فضلاً عن غيرهم، ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، والعبودية هي الوصف اللازم لهم جميعاً: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ (مريم: ٩٣ ـ ٩٥).

والشمس والقمر والنجوم إن هي إلا كواكب مسخرات بأمره تعالى، لا يجوز أن يحني صلب من أجلها راكعاً، أو يخر وجه من أجلها ساجداً: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (فصلت: ٣٧).

وكل ما يدعى من دون الله في الأرض أو السماء هو مخلوق عاجز لا قدرة له، محتاج لا قيام له بذاته، ضعيف لا يقوى على حياة نفسه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ (الحج: ٧٣) وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ (الإسراء: ٥٦ ـ ٥٧) وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ (الأعراف: ١٩٤).

ثانياً: تحرير العبادة من رق الكهنوت.

إن رجال الدين جعلوا من أنفسهم في الديانات النصرانية واليهودية وسطاء بين الناس وبين الله.

ومن ثم قيدوا العبادات بمكان معين، يدخل في سلطتهم لا تجوز إلا فيه وقيدوها بوسيط معين، يقوم بعملية السرقة من أموال الناس باسم الدين، وجعلوا لذلك مراسيم وطقوس كهنوتية خاصة لا تقبل بدونها.

وقد بالغ رجال الدين المسيحي في العصور الوسطى في فرض هذه المظاهر الكهنوتية فعلقوا في معابدهم رسوماً وتماثيل للعذراء والمسيح، وعدتها الكنيسة شعائر تعبدية واجبة التقديس.

وكان من أعجب ما صنعوه أنهم اتخذوا من الجنة مصدراً للثروة يبيعون منها قراريط وأسهماً لمن يدفع الثمن المعلوم، وعلى قدر المدفوع يكون عدد الأسهم.

ومن الطرائف اللاذعة ما حكوا أن أحد الأثرياء اليهود أراد أن يقابل هذه السخريات العجيبة بسخرية أمَرّ وأعجب، فقد ذهب إلى أحد البابوات ولم يشتر منه الجنة، كما كان يفعل المسيحيون، ولكنه اشترى منه صفقة أخرى هي: جهنم! فباعها له بثمن بخس؛ لأنها سلعة لا يرغب فيها أحد؛ ولكن اليهودي الماكر أعلن للمسيحيين جميعاً: ألا يبالوا بشراء الجنة بعد اليوم، لأنه هو قد اشترى من البابا جهنم، ولن يدخل أحد فيها قالوا: فعاد البابا واشتراها بأضعاف ما باعها به!![1].

والرؤساء الروحانيون في المسيحية يزعمون أن لهم سلطة المنح والمنع والغفران والحرمان، والإدخال في رحمة الله، والطرد منها، لأن المسيح قال لبعض تلاميذه على حد زعمهم: سأعطيك مفاتيح ملكوت السمٰوات، فكل ما ربطته على الأرض يكون مربوطاً في السمٰوات، وكل ما حللته على الأرض يكون محلولاً في السمٰوات[2].

حرر القرآن الكريم العبادة من القيود المكانية المتزمتة، ولم يشترط المكان الخاص في عباداته إلا في الحج، لما فيه من فوائد تفوق فائدة التحرر من المكان، من

(١) انظر: العبادة في الإسلام (١٤٩).
(٢) انظر: إنجيل متى (١٦، ١٩).

التجمع العالمي للمسلمين حول أول بيت وضع للناس[(١)].

ومع اشتراط المكان لعبادة الحج، فليس فيه أي شائبة لتأثير الكهنوت وليس فيه أي ثغرة لتدخل الوسطاء والكهان بين المسلم وبين الله، وشأنه في ذلك شأنه في سائر عبادات الإسلام.

إن العبادات في القرآن الكريم لا تتوقف على توسيط هيكل أو تقريب كهانة، إن المسلم يصلي حيث أدركه موعد الصلاة، وأينما تكونوا فثم وجه الله، ويصوم ويفطر في داره أو في موطن عمله.

ويحج ليذهب إلى بيت لا سلطان فيه لأصحاب سدانة، ولا حق عنده لأحد في قربانه، غير حق المساكين والمعوزين ويذهب إلى صلاة الجماعة، فلا تتقيد صلاته الجامعة بمراسم كهانة أو إتاوة حراب، ويؤمه في هذه الصلاة الجامعة من هو أهل للإمامة بين الحاضرين باختيارهم لساعتهم إن لم يكن معروفاً عنده قبل ذلك[(٢)].

إن عقيدة المسلم في الله لا تتيح مكاناً لأولئك الوسطاء الذين يتحكمون في ضمائر عباد الله، فاعتقاد المسلم في الله يقوم على حقيقتين:

أولاهما: أنه تعالى فوق عباده، علو قهر، ومكانة، وذات سلطان وتصرفه لا يشبهه شيء، ولا يحكم عليه شيء، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٨﴾ (الأنعام: ١٨). ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١). ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ (الإخلاص: ١ ـ ٤).

أما المسلم فقد عرف من كتاب الله العزيز أن الأرض كلها محراب كبير، فحيثما توجه يستطيع أن يتجه بعبادته لله. وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ (البقرة: ١١٥).

ويقول الرسول الكريم ﷺ: «**وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل**»[(٣)].

---

(١) انظر: العبادة في الإسلام (١٥١).
(٢) انظر: حقائق الإسلام، للعقاد (١١٢).
(٣) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً (١/١٢٩ رقم ٤٣٨).

وقد كانت هذه الخصيصة للعبادة الإسلامية موضع الإعجاب العظيم والتأثير البالغ من كثيرين من غير المسلمين، حتى من رجال الأديان أنفسهم حتى إن الأسقف (لوفروا) قال: لا يستطيع أحد يكون خالط المسلمين لأول مرة، ألا يدهش بمظهر عقيدتهم، فإنك حيثما كنت سواء أوجدت في شارع مطروق أم في محطة سكة حديدية أم في حقل، كان أكثر ما تألف عيناك مشاهدته أن ترى رجلاً ليس عليه أدنى مسحة للرياء، ولا أقل شائبة من حب الظهور، يذر عمله الذي يشغله كائناً ما كان، وينطلق في سكون وتواضع لأداء صلاته في وقتها المعين[١].

ولقد كان هذا المشهد العجيب في الأديان أحد العوامل التي أثرت في وجدان المحامي الكبير الأستاذ زكي عريبي عميد الطائفة اليهودية في مصر والذي اهتدى إلى الإسلام في عام ١٩٦٠، ومماجاء في محاضراته (لماذا أسلمت؟) قوله: (وما سمعت المؤذن يؤذن في الفجر أو في الظهر أو في أي وقت آخر إلا شعرت بأنه صوت الله، الذي يفصل بين الحق والباطل والحلال والحرام ويهدي الإنسان إلى الطريق المستقيم، وأركب السيارة في السفر وعلى الطريق بين الحقول وبين الفضاء تقع عيني على رجل متواضع يقف بين يدي الله في ثياب رثة مهلهلة، يقف على مصلى صغير، مفروش بالرقيق من الحصير على شاطىء ترعة متواضعة يصلي لله في خشوع وابتهال، فكانت نفسي تهفو إلى أن أصلي مثل صلاته، كنت أعتقد أن هذه نفحات الله في الأرض يلقيها في نفوس عباده الصالحين)[٢].

والحقيقة الثانية:

أنه تعالى ـ مع عظمته وعلو شأنه ـ قريب من خلقه، بل هو معهم أينما كانوا، في جلوتهم وفي خلوتهم، يسمع ويرى، ويرعى ويهدي، ويعطي من سأله، ويجيب من دعاه، فهو تعالى قريب في علوه، عَلِيّ في دنوه، وقد جمع تعالى بين العظمة والعلو، وبين القرب والدنو، في آية واحدة، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ (الحديد: ٤).

(١) انظر: العبادة في الإسلام (١٥٠).
(٢) انظر: العبادة في الإسلام (١٥١).

وقد عبر القرآن على لسان إبراهيم ـ أبي الأنبياء ـ عن العلاقة بين الإنسان والله فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ (الشعراء: ٧٨ ـ ٨٢) وقال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ (ق: ١٦) وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (الواقعة: ٨٥) وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ (البقرة: ١٨٦).

ومن اللطائف في هذه الآية: أن سؤال الرسول ﷺ عن بعض الأمور قد وقع في القرآن بضع عشرة مرة، وكان كل جواب عن تلك الأسئلة مقترناً بكلمة (قل) مثل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ﴾ (البقرة: ١٨٩).

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ (البقرة: ٢١٩). وكان مقتضى تلك الآيات أن يقال في هذه: وإذا سألك عبادي عني فقل: إني قريب، ولكن أسلوب الآية خالف المعتاد ولم يأمر الله رسوله أن يقول للناس ذلك، وقال سبحانه مباشرة (فإني قريب) ولهذا الأسلوب البياني دلالته وإيحاؤه في الأنفس والعقول، إذ لم يجعل الله واسطة بينه وبين عباده، وهذا من وسطيّة القرآن الكريم في جانب العبادة حيث حرر العبادة من رق الكهنوت، إن القرآن الكريم رد على من زعم أن له منزلة خاصة من الله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (المائدة: ١٨).

وحكى عن المسيح أنه يقوم لربه يوم القيامة في شأن من ادعوا الانتساب إلى دينه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ (المائدة: ١١٨) وبيّن القرآن الكريم أن النبي ﷺ لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً إلا ما شاء الله، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ (الأعراف: ١٨٨).

هذه وسطيّة القرآن في العبادة حرصت على تحرير الإنسان من رق الكهنوت، ومن الوسطاء بين العبد وخالقه.

فالمسلم تعلم من القرآن الكريم أن يكلم ربه بلا ترجمان، وأن يناجيه بما شاء حيث شاء ومتى شاء، وأن يقف بين يديه بلا حجاب ولا واسطة إلا العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ (النساء: ١٢٣ ـ ١٢٤).

أو الدعاء بالأسماء الحسنى:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ (الأعراف: ١٨٠).

أو الدعاء في ظهر الغيب من أهل الصلاح لإخوانهم:

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ (الحشر: ١٠).

ثالثاً: التوازن بين الروحية والمادية.

التوازن والاعتدال بين الروحية والمادية، أو بين الدين والدنيا، هو توجيه قرآني، دعى إليه المولى ﷻ في كتابه العزيز ليصلح ما أفسده محرفو الأديان في مجال العبادة.

غلو اليهودية في أمر الدنيا:

لا تكاد تجد في أسفار التوراة الخمسة الحالية للروحانية أثراً، ولا للآخرة مكاناً، حتى الوعد والوعيد في هذه الأسفار للمطيعين والعصاة، إنما يتعلقان بأمور دنيوية، وسيطرت عليها النزعة المادية الخالصة، فالخصب والصحة والثراء وطول العمر، والنصر على الأعداء ونحوها من المكاسب الدنيوية الزائلة، هي المثوبات التي تبشر بها التوراة، وأضداد هذه الأمور من الجدب والمرض والموت والوباء والفقر والهزيمة ونحوها للذين يعرضون عن الشريعة، فليس للأجزية الروحية ولا الأخروية مكان في التوراة[1].

إهمال المسيحية لأمر الدنيا:

أما في الإنجيل فالدعوة فيه قوية إلى إلغاء قيمة هذه الدنيا، واعتبار هذه الأرض

(١) انظر: العبادة في الإسلام (١٧٥).

بمثابة منفى الإنسان، وطلب النجاة والسعادة هناك، في العالم الآخر، حيث تقوم مملكة السماء، فمن أراد ملكوت السماء فليعرض عن هذه الأرض، ومن أراد العالم الآخر، فليرفض هذا العالم أو هذه الدنيا، وهكذا لا تحس في الإنجيل أن لك في الدنيا نصيب، وأن لك في طيبات الحياة حظّاً، ولا تشعر أن لبدنك عليك حقّاً، وإن لك في عمارة الأرض دوراً، ولم تقف الدعوة إلى التقشف والتزهد وإهمال الحياة الأرضية، عند الحد الذي جاء به الإنجيل؛ بل ابتدع النصارى نظام الرهبانية، بما فيه من قسوة على النفس، وتحريم للزواج، وكبت للغرائز، ومصادرة للنزوع إلى الزينة والطيبات من الرزق، وانتشر هذا النظام العاتي، وكثر أتباعه، وأصبح ما يتعبدون به الله ويتقربون به إليه: البعد عن النظافة والتجمل، واعتبار العناية بالجسم ونظافته ونوازعه رجساً من عمل الشيطان[١].

وقد ذكر أبو الحسن الندوي[٢] في كتابه صوراً للجموع الرهبانية وغلوها، ما تقشعر منها الجلود، وتفزع القلوب، وتدهش العقول، وهذه الصور ـ كما يقول الأستاذ الندوي ـ قليل من كثير جدّاً: (وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائماً: وإنما يتسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام: وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر، ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون من غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس، وكانوا يفرون من ظل النساء ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن في الطريق والتحدث إليهن ـ ولو كن أمهات أو أزواجاً أو شقيقات ـ تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية). وذكر من هذه المضحكات المبكيات شيئاً كثيراً[٣].

ثالثاً: التوازن سمة القرآن والسنة النبوية:

وهكذا كانت اليهودية في إغفالها للآخرة وللروح، وهكذا كانت المسيحية في تحقيرها للدنيا والجسد.

---

(١) انظر: العبادة في الإسلام (١٧٦).

(٢) هو العلامة الأستاذ الأديب أبو الحسن الندوي الحسني من علماء الهند ورئيس رابطة علمائها وأدبائها له جهود مشكورة في مجال الدعوة والتأليف وخصوصاً في الهند وهو من المعاصرين.

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ (١٥٨ ـ ١٦٠).

obeikandi.com

فلما جاء الإسلام كانت سمة التوازن والاعتدال في كل الآفاق والنواحي، الاعتدال الذي يليق برسالة عامة خالدة، جاءت لتسع أقطار الأرض، وأطوار الزمان، وتشرع لشتى الأجناس والطبقات والأفراد في مختلف شؤون الحياة، الاعتدال بين أشواق الروح وحقوق الجسد، بين بواعث الدين، ومطالب الدنيا، الاعتدال بين العمل لهذه الحياة والعمل ما بعد الحياة.

وبيّن القرآن الكريم أن على المسلم ألا يشغله حق الجسد عن حق الروح وألا تشغله رغائب الدنيا العاجلة عن حقائق الآخرة الباقية، عليه ألا ينسى الله فينسى حقيقة نفسه، وماهية وجوده، وفي هذا يقول القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الحشر: ١٨ ـ ١٩).

إن مهمة العبادة في الإسلام الأخذ بيد الإنسان حتى لا تغرقه أعمال الدنيا في لجة النسيان، حيث ينسى الله، فيُنْسِيه اللَّهُ نفسَه، ومهمة العبادة أن تقوم بالتنبيه والتذكير لمن نسي مولاه، أو غفل عن أخراه، ثم تدع الإنسان يعود بعد أدائها إلى دنياه يلقاها ساعياً حثيث الخطى، وثيق العرا.

إن القرآن الكريم وضع المسلم في وضعه الرشيد بين الدين والدنيا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الجمعة: ٩ ـ ١٠).

وهذا هو شأن المسلم: عمل وبيع قبل الصلاة: ثم صلاة وسعي إلى ذكر الله ثم ـ بعد انقضاء الصلاة ـ انتشار في الأرض وابتغاء من فضل الله، وفضل الله هنا هو الرزق والكسب.

ورواد المساجد في الإسلام ليسوا شيئاً متعطلاً، ولا رهباناً متطلبين، وإنما هم كما وصفهم القرآن: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ (النور: ٣٧).

فهم أناس لهم دنياهم وأعمالهم من تجارة وبيع، وما أشد ما تشغل التجارة والبيع، ولكن ذلك لم يلههم عن حق الله.

obeikandl.com

وفي سياق الحج يرسم القرآن الكريم لنا صورة واضحة لصنفين من الناس الذين يدعون الله ويسألونه في تلك المنازل. قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ (البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠٢).

هكذا قسم القرآن الناس في الموقف الذي تسمو فيه الأرواح وتدنوا القلوب من ربها، وتهب عليهم نسمات الذكريات المحمدية من قريب، والذكريات الإبراهيمية من بعيد.

قسمان فقط ذكرهما القرآن: طلاب دنيا وما لهم في الآخرة من خلاق، وهم ذلك الصنف الذي توعده الله في آية أخرى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ (الإسراء: ١٨) وطلاب دنيا وآخرة يطلبون الحسنة في الحياتين، والسعادة في الدارين، دعاؤهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾. والحسنة في الدنيا ذهب العلماء إلى أقوال متعددة فيها: العافية، والمرأة الصالحة، الأولاد الأبرار، أو العلم النافع، أو الرزق الواسع، أو المحبة بين الناس، أو نحو ذلك، فكل هذا مما يحقق حسنة الدنيا[1].

ولم يذكر القرآن الكريم القسم الثالث من الناس ـ بحسب التقسيم العقلي ـ وهو من لا يطلب إلا حسنة الآخرة، وماله في الدنيا من أرب، وكأنه يعلمنا أن هذا الصنف لا يكاد يوجد في الناس، فالحياة بمتاعبها الجمة وحقوقها المتنوعة، تفرض على طالب الآخرة أن يدعو ربه لييسر له سبيل دنياه ويعينه على أداء حقوقها، ويخفف عنه متاعبها ثم هو يشعرنا أن إهمال الدنيا، وإهدار شأنها في حساب طالب الآخرة إنما هو أمر مذموم خارج عن سنة الفطرة، وصراط الدين معاً.

ولهذا لم يقبل رسول الله فكرة الانقطاع عن الدنيا من أجل الرغبة في الآخرة، والاعتزال المطلق لعبادة الله، وكلما رمق في بعض أصحابه نزعة إلى هذا اللون من السلوك الذي عرف في بعض الأديان الأخرى، قوَّم عوج أفكارهم، وهداهم للتي هي أقوم[2].

---

(١) انظر: العبادة في الإسلام (٨٢).
(٢) المرجع السابق.

إن وسطيَّة القرآن الكريم في العبادة، جعلت العبادة لا تنعزل عن الدنيا، والدنيا لا تحيف على العبادة؛ بل جمعت بين الأمور بدون إفراط أو تفريط أو غلو أو جفاء.

رابعاً: الرخص والتخفيفات في العبادة دليل على وسطيَّة القرآن:

قد علمنا أن من ملامح الوسطيَّة رفع الحرج في الشريعة، واليسر في الأحكام، وعدم التكليف بما لا يطاق ويظهر رفع الحرج في باب العبادة واضحاً في الرخص والتخفيفات التي تدل على اليسر ورفع الحرج في عباداته وتكاليفه في عامة الأحوال، فإن القرآن الكريم، والسنة النبوية شرعت ألواناً من الاستثناءات والإعفاءات والتسهيلات في أحوال خاصة، وهي تلك التي توجد للإنسان نوعاً من المشقة يؤوده ويثقل ظهره، ويقعد به عن مواصلة السير. فالسفر مثلاً تقتضيه مطالب الحياة التي جاء الدين بإقرارها؛ بل بتمجيدها والدعوة إليها.

كالسفر في طلب الرزق ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ (الملك: ١٥).

والسفر للحج إلى بيت الله ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧﴾ (الحج: ٢٧).

والسفر لطلب العلم، وغير ذلك من الأغراض الدينية والدنيوية والمرض مثلاً من ضرورات الحياة وبلائها الذي لا يكاد يسلم منه إنسان بمقتضى النشأة الإنسانية، والتركيب البشري ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ (البلد: ٤).

والجهاد من مطالب الحياة وضروراتها معاً، إذ الإسلام لم يشرعه إلا دفاعاً عن النفس، وتأميناً للدعوة، ودرءاً للفتنة، وإنقاذاً للمستضعفين وتأديباً للناكثين.

وفي هذه الأمور الثلاثة ـ السفر والمرض والجهاد ـ قرر الإسلام تيسرات شتى:

من رخص الصلاة:

فجعل للمسافر في الصلاة القصر: يصلي الرباعية ـ كالظهر والعصر والعشاء ـ ركعتين فقط، وقال الرسول ﷺ في ذلك: «**صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**»[1].

(١) رواه مسلم مع شرح النووي، كتاب الصلاة، (٥/١٩٦).

ورخص له في الجمع بين الصلاتين ـ الظهر مع العصر، والمغرب مع العشاء ـ فأجاز جمعهما في وقت إحداهما تقديماً أو تأخيراً كما رخص للمريض أن يصلي قاعداً أو مضطجعاً على جنبه، أو مستلقياً على ظهره، حسب استطاعته، وليس على المريض حرج، وفي (الطهارة) ـ التي هي شرط لصحة الصلاة ـ رخص لمن يتعذر عليه استعمال الماء من مريض أو مسافر أو نحوهما أن يترك الوضوء إلى التيمم بالصعيد الطيب من رمل أو تراب أو حجر أو نحوه، تيسيراً من الله ورحمة بعباده:

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة: ٦).

وقد ذكر القرآن هذا الحكم أيضاً:

في سورة النساء قائلاً:

﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (النساء: ٤٣).

وفي هذه الآيات يتبين للمسلم أن هذه الرخص في العبادات مظهر يتجلى الله فيه بأسمائه: (العفو الغفور، الكريم الرحيم، الذي يريد أن يطهر عباده ويتم عليهم النعمة)[1].

وهذا دليل على وسطيّة القرآن في العبادات.

من رخص الجهاد:

وفي الجهاد شرع الله صلاة الحرب أو الخوف، وجعلها في الرباعية (ركعة واحدة) تيسيراً، وإعانة لهم على عدوهم وعند التحام الصفوف قبل الله منهم الصلاة كيف استطاعوا ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ (البقرة: ٢٣٩).

فلا يشترط فيها ركوع ولا سجود ولا استقبال قبلة.

ولم يكن النبي ﷺ وأصحابه يفرقون بين الصلاة والجهاد، فتلك عمود الإسلام،

(١) انظر: العبادة في الإسلام (١٩٧).

وهذا ذروة سنامه، وقد فرض الله على المجاهدين أن يحملوا أسلحتهم ويأخذوا حذرهم وهم بين يديه خاشعون، ولربهم مبتهلون مناجون: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ (النساء: ١٠٢).

رخص الصيام:

وفي صيام رمضان رخص المولى ﷻ للمسافر في الإفطار، بل أوجبه عليه إذا كان في صومه مشقة ظاهرة عليه، ففي الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ في سفر فرأى زحاماً ورجلاً قد ظلل عليه، فقال: **ما هذا؟** فقالوا: صائم، فقال: **ليس من البر الصوم في السفر**»(١).

وبذلك أثبت النبي ﷺ بكل صراحة: أن الصيام إذا أتعب صاحبه وأجهده لا يجوز له صيام.

وكذلك رخص المريض بالفطر في رمضان، ويقضي هو والمسافر عدة من أيام أخر، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

ورخص رسول الله ﷺ للمجاهدين بالفطر في الصيام عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة في رمضان فصام، حتى بلغ الكديد(٢) أفطر، فأفطر الناس»(٣).

ومبدأ التخفيف والتيسير في العبادة من أجل المرض والسفر والجهاد مبدأ نزل به القرآن منذ مطلع فجر الإسلام في مكة ففي سورة المزمل قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب ليس من البر الصوم في السفر (٢/ ٢٩٢ رقم ١٩٤٦).
(٢) الكديد: منطقة ما بين عسفان وقديد في طريق مكة.
(٣) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب إذا صام أياماً من رمضان ثم سافر (٢/ ٢٩٢ رقم ١٩٤٤).

مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ (المزمل: ٢٠).

وبهذا يتضح للقارىء الكريم عظمة المنهج الرباني ووسطيته في كافة المجالات التشريعية من عقائد، وأخلاق، وعبادة، وحرصه على رفع الحرج وتيسير الأمور وتسهيلها على الناس والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

* * *

o p e i k a n d l . c o m